

القسم الثاني

تواجه غربية

obeikandi.com

بہوفن



اليوم ، ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة
بتهوفن ، إجلالا لتلك الألحان القدسية التي أورثها إياه هذا النابغة الشقي ، والتي
ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة في عالم النغم . فما يزال
لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج في جو
الوجود فتزیده بالحياة نعمة ، وتشدو في أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما
أعوزهم اللحن العذب ليرفع من همهم وليقوى عزائمهم . وما يزال اسم بتهوفن
ولن يزال مقترنا بكل لحن من هذه الألحان ، بل بكل نعمة من نعماتها . وذكر العالم
اليوم له مرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل
من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الألماني المولد ، الفلمنكي الأصل ،

المتقارب أجزاء الجسم في قصر يكاد يجعله قرماً ، الحاد النظرة ، العيوس ، المتجهم للحياة بعد ما توجهت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به إلى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الألم سبيل المسرة ، المقتنى نفسه في سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد في غير العمل سبيلاً للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توافر على عمله في الموسيقى توافراً جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذى لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمن بشيء إيمانه بها أن كانت أعصابه أوتاراً تهتر بالنغم لكل ما في الحياة .

فقد كان كل ما في الحياة عنده نغماً ، كان الجبال نغماً والعواطف نغماً والأفكار نغماً والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل ما في الطبيعة وما في الحياة أنغاماً تشدو بها أوتار هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثير بكل ما يلامسها .

هذه الأنغام وبما تعبر عنه من جليل المعاني ويذكرى واضعها يحتفل العالم إذن اليوم .

وعجيب أن كانت حياة واضع هذه الأنغام السماوية نشازاً كألها . فلم ينشأ بهوفن نشأة غيره ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهناء ما يذوقه أمثاله . بل كان ، وهو على حد قوله « باكوس الذى يستصنى للإنسانية الرحيق العذب ويمجلى على الناس أقدس ما في الروح من جلال » معذباً في نشأته ، معذباً جل حياته ، معذباً كذلك في موته . ولعل ما تمتع به ذكراه بعدما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح إليه يوماً طوال عيشه .

□ □ □

ولد لدفنجان فان بهوفن بمدينة بون على مقربة من كولونيا في ١٦ ديسمبر سنة

١٧٧٠ . وكان أبوه مغنياً سكيراً ، وكانت أمه خادماً وابنة طباطخ وأرمل فراش . وهذه بداية في الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هي نذير صراع للوجود قاس قتال . ولم يممهله أبوه إلى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ، فأراد أن يستغله بعرضه على الثامن وحبه ومعه كمنجا صغيرة ، وأرهمه بالعمل حتى كاد يكره إليه فناً خلق له . لكن كسب الأب كان تافهاً ، فكان لابد للطفل أن يمضي من عمله عيشه . فما بلغ . الحادية عشرة حتى كان عازفاً في اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه وهو في السابعة عشرة من عمره فحزن لفقدها أشد الحزن أن ألقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحط من قوى أبيه . وفي نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى إلى فيينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه . وكان يوشد كما كان طوال حياته ميالا للتعزلة محباً للعمل حباً جمياً . وكان لذلك قد جعل من البيانة^(١) خير أصدقائه . فإليها كان يث شجنه حين اضطرت لهجرة دار أهله وقد جعلتها عريضة أبيه جحماً ، وإياها كان يستودع الأفكار الطريفة التي يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الأفكار ارتجالاً ، ومعها كان يتناجى بما يجول في نفسه من خلجات وما يجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتي أحب عما يفمر قلبه من هيام وما يحز فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدث بها إلى أصدقائه . ولم يكن أكثر منها بلاغة للتعبير عما في نفسه . فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقدته أي جزع ، فلما ذهب بتروفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « إن ما أشعر به هنا لا سبيل إلى بيانه . لكن البيانة ستقوله عنى » ثم جلس إلى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى في صدرها ألمه ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء . وكذلك كانت البيانة صديقه كما كانت موضع قوته في الموسيقى وسلطانه في الارتجال . بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار -

(١) البيانو على تحت الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

الذى ملأت ألحانه آذان ذلك العصر وما تزال إلى اليوم من مفاخر الموسيقى - وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للفرقة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا إلى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوماً من الأيام » .

ذهب إلى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالمشتين . وكان أكبر همه من ذهابه إليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ . لكن هايدن كان مشغولاً بتوليفه جد الاشتغال ، فلم يجد الشاب من وقته ما يفيد . فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرنختبرجيه . وكانت أخلاق هذا الأستاذ على علمه يشوبها كثير من القرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة النائرة . وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من آثار النبوة عن متعارف القواعد مالم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى خلق فى السماء فخضعت له كل القواعد .

وعضده يومئذ البرنس لحنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستائة فلورينا سنوياً . وألفت بينها صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائماً عليها الأميرة لحنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقم معهم حق قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفرنسية تغزو العالم كله بمبادئها . وكان بتهوفن خصماً لها أول أمره . لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادئ الجمهورية التى قامت عليها الثورة ، جعل منه نصيراً من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء إليه الجنرال الفرنسى برنادوت يطلب إليه أن يضع لحناً symphonie لمجد قنصل الثورة بونابارت . وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة إرساله إلى باريس إذ علم أن نابليون توج نفسه إمبراطوراً . فما لبث أن عاد إلى بيته

ساخطاً ومزق لحنه وقال : « هذا رجل مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خيراً . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كى بعيد هذا اللحن إلى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلا نشيد الأسمى ، كأنما ينمى ما كان من انهار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف إلى عنوانه هذه العبارة « إحياء لذكرى رجل عظيم » .

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضاً . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب أوبرا فدلويو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصور التي صورتها في ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله في المستقبل . ففي سنة ١٧٩٦ كتب في مذكراته الخاصة بقول : « إقداماً ! » وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبرتيها أذا بلغت الخامسة والعشرين . . فيجب في هذا العام أن يظهر الرجل كاملاً » وذلك على أنه كان ما يزال في بداية حياته العامة . فأول حفلة عامة له كيباني وقعت في ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب في قوته ولم يخف ذلك على أحد من أصحابه . بل كان يباهى به على صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب إلى الدكتور وجلر - صديق صباه في مسقط رأسه - يخبره بنجاحه العظيم ، فكانت الفكرة الأولى عنده ظاهرة في قوله : « أرى مثلاً صديقاً محتاجاً فإذا لم يسمح لي جيبى بالإسراع إلى معونته لم يكن عليّ إلا أن أجلس إلى منضدة العمل فإذا بي في وقت قصير قد سددت حاجته ، أأست ترى هذا غاية في الجمال . . . ويجب أن أقف فني على معونة الفقراء » .

لكن ! بالقسوة القدر ! فماكاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك إليه مساربها . بدأت هذه الآفة التي نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦ . فلما تمخض على هذه السكينة للقوة العظيمة

شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم . وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنيناً مزعجاً . وقد ظل سنوات يتخفى مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف تريد موسيقياً على أن يقول للناس إنه أصم ! لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه في عدد من الألحان التي وضعها في ذلك الحين فقد بقي أكثرها بساماً طروباً . غير أنه لم يطلق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعاً ، فكتب في سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة إلى كثير من أصدقائه ومن بينهم صديقه أمتدا إذ كتب يقول له :

« عزيزي الطيب الرفيق أمتدا . . . كم كنت أرجوك بجانبي . فصديقك يتوفن بانس غاية البؤس . ذلك أن سمعي وهو أكرم أجزاء نفسي على ، قد ضعف كثيراً . وكنت أشعر منذ كنا معاً بأعراض المرض وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ، فهل أشقى ؟ أرجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائي فيه قليل . فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء . وسأضطر لقضاء العيش في بؤس فأنتجيب كل ما أحب وكل ما هو عزيز على ، وذلك بين عالم شقوة وأنانية . . . بالشقاء الامتسلام الذي يجب أن ألجأ إليه . لا ريب أني فرضت على نفسي السمو فوق كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ »

هل من سبيل إلى عزاء لبتوفن عن هذا الألم ؟ هل من وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هي المرأة والسبيل هو الحب . فلو أن بتوفن وجد يومئذ من يتعلق بها قلبه ويؤمن به ويعظمته قلبها ، لكان له من ذلك ما يهون عليه بعض همه ، ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفاً ، لكن حبه كان قاسياً كالفضيلة التي امتلأ بها قلبه . وكان لذلك يرى عارا أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشوبه الشهوة . ولذلك عاب على موزار قطعته « دون جران » . على أن فضيلته القاسية هذه هي التي كانت سبب فشل علاقته الغرامية جميعاً . ففي سنة ١٨٠١ تعلق

بجوليتا جوكشياردى وأهداها لحنه المعروف « ضوء القمر » ، وكتب إلى صديقه وجلر يقول له « الآن أعيش أكثر سكيناً وأختلط بالناس أكثر من ذى قبل . ولقد أبدع هذا التطور في حياتي سحر فتاة عزيزة تحبني وأحبها وهذه هي اللحظات السعيدة الأولى التي تذوقت منذ عامين » لكن هذا الحب زاده شعوراً بمرضه كما أن جوليتا كانت لعوباً شديدة الأنانية لا تعبا بالآلام بتهوفن . ولم تعف في سنة ١٨٠٢ ، أى بعد ستة واحدة سن حبها ، عن أن تزوج من الكونت جالبرج . وكان حب بتهوفن إياها طاهراً مخلصاً ، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يدعى باسم الطيبة ويقول « إنه عدوى ، وذلك هو السبب في إسدائي إياه كل خير أستطيع إسدائه » .

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا إلى اليأس من الحياة وإلى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب إلى « هيليجنستات » إحدى ضاحيات فينا مستشفياً . ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئاً ، هنالك كتب وصيته التي نثبها هنا ، وإن كان قد عاش بعدها خمسا وعشرين سنة ، لأنها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم إيمانه بفسنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه ووجهه الناس ، وتدل على أن هذه العواطف كانت في هياجة نائرة كهذه الموسيقى القوية النائرة التي نسمعها له في كثير من ألحانه وحتى في ألحانه الرقيقة للحممة والسدا . قال :

« يا أيها الذين ينظرون إلىّ أو يحسبوني حقوداً أو برماً بالناس أو متطيراً بالحياة ، لشد ما تظلموني . إنكم لا تعرفون السبب الحقى الذى يظهرني بهذا المظهر . فقد كان عقلى وقلبي متجهين منذ طفولتي إلى عاطفة رقيقة هي الطيبة ،

وكت دائما مستعداً لأقوم حتى بعظام الأفعال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه الحال التى زادها الأطباء الأغرار سوءاً والتي ما أزال أهدع فى أمرها عاماً بعد عام آملاً فى تحسها ، ثم أضطر آخر الأمر لأحسبها حالاً مزمنة يقتضى البرء منها ، إن كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالاً .

« لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع ثم اضطرت وما أزال فى أول عمرى إلى عيش العزلة . وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الأليمة القاسية غير مرة وجددت عندى الإحساس بمرضى . ثم إنى كنت مستظيماً أن أقول للناس : أرفعوا الصوت وصيخوا فإني أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى أدنى إلى الكمال منها عند الآخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حدّاً لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع ، فاعذروني إذاً إن رأيتوني أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم وشقائى مضاعف له ألى أن كان سبباً للحكم على حكماً قاسياً . ولقد منعت من أن أجد الراحة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس وفى المحادثات الظرفية وفى العطف المتبادل . فأنا وحيد منقطع . لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة ، وما لم تكرهنى على ذلك حاجة فيجب أن أعيش منقياً . فإذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسى من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمرى .

« ومن ثم أمضيت هذه السنة الأشهر فى الريف ، وقد طلب إلى طبيى الفاضل أن يعنى بسمى جهد الطاقة ، وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو . ولقد شعرت غير مرة بالليل للاجتماع بالناس وتركت نفسى تنال منها ، ولكن ! أى مذلة أن أرى رجلاً على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً ، أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئاً . ولقد قربت هذه التجارب بينى وبين الأيام حتى كدت أفضى

بيدي على حياتي . لكنه الفن - نعم هو الفن وحده الذي استبقاني - أواه ! لقد بدا لي أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست أني مطالب بأدائه . وكذلك أطلت في هذه الحياة البائسة ، والبائسة حقاً ، لجسد سريع التهيج حتى لينقله أقل تغيير من خير الحالات إلى أسوأها . . . صبراً - كذلك يقولون ! وهو الصبر الذي يجب أن أختاره الآن مرشداً . وقد اخترته . وإني لأرجو أن تظل عزيمتي على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتي . وإن يصلح الحال أو يسوء فإني لصابر . ألا ليس يسيراً أن يكره الإنسان ، وما يزال في الثامنة والعشرين من العمر ، على أن يكون فيلسوفاً . وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأى رجل آخر .

« اللهم إنك لتستشف من سمائك حجب قلبي وتعرفه وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة في عمل الخير . وأنتم أيها الناس إذا قرأتم يوماً هذا الذي أكتب فاذكرواكم كنتم ظالمين إياي . وإن الشقي ليتعزى إذا رأى شقياً مثله قام برغم كل ما ألفت الطبيعة في سبيله من عقبات بكل ما في جهده أن يقوم به ، كي يكون في صف رجال الفن والصفوة المختارين »

هيلجنستات في ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ لدفع فان بتيوفن

« هيلجنستات في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ - والآن وداعاً ، وداعاً أسيفاً - إن الأمل العزيز الذي جئت به إلى هنا ، هذا الأمل في أن أشقى ولو إلى حد يجب أن أياأس منه كل اليأس . وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى ، كذلك هذا الأمل جف في نفسي وذوى - كما جئت إلى هنا أعود وقد فقدت حتى الهممة التي كثيراً ما استندت إليها أيام الصيف الجميلة - أواه أيها القدر ! - هب لي أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو - فما أطول الزمن الذي حبس عني فيه رنين المسرة الصادقة

العميق - آواه متى يارب ؟ متى أستطيع أن أحس بها في معبد الطبيعة والناس . . .
أبدأ - كلا . فذلك يكون أبلغ القصة .

لم تنشر هذه الوصية إلا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد إيمانه مع ذلك بالفن ، هذا الإيمان الذي جعله يستأخر الموت وإن كان في الموت راحة من شقوته وأوصابه ، ويستأخره ليم رسالته وإن عانى في سبيل إتمامها من الآلام مالا قبل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النوايغ حقاً يستينون في سبيل إبراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يزعجون منه ويفرون . فبينما كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفياً بترجييعها في صدره بينه وبين نفسه ، وبإثباتها على القرطاس لتكون سبيلاً إلى سلامه بعد موته ، كان أخواه يستغلان ألحانه استقلالاً مادياً ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لأخويه حباً يتفق مع عظمة الفضيلة التي تفيض بها نفسه أناشيد وألحاناً قديمة سامية . وكثيراً ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكي : « لكنها أخواي » . وما لأخويه وبكائه ؟ إنه لها مزرعة تستغل ومورد رزق فياض . كتب أحد أخويه لناشر طلب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيد .

« ليس لدينا من ذلك الآن إلا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمان كل ثلثمائة فلورين . أفتريد ثلاث سونات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع أن نقبل فيها أقل من تسعائة فلورين ، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة ، لأن أخى أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات ولدنيا . . . » وذكر بقية « البضائع » . وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله إلا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التي يحتفظ هو بها للفن فليست في ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله في حاضره ومستقبله . هي قبارة قديمة بعثتها يد العناية إلى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية في

الخلق من نجات . وإلى أن تم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذباً شقيماً ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الأقل يجب أن ينسيه إيمانه برسائله وانصرافه بكل وجوده لإبلاغها هذا الشفاء وهذا العذاب .

لكن المرأة هي البلم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبثت جوليتا بتهوفن عبثاً قاسياً برغم ما كان من شديد تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعدما جفته هذه اللعوب الأثرة المحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالد ؟ كلا ! فما تزال لتهوفن ساعات سعادة في الحياة ينعم بها برغم همه ، وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هي تريز برنسويك .

وكان تهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الأولى في فيينا إن كان يعلمها البيانة . لكنه لم يتعلق بها يومئذ ولم يسر إلى قلبه خاطر الحب منها وإن اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصدقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار تهوفن صديقه القديم في مارتينفاسار بالبحر . قالت تريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس تهوفن في ضوء القمر إلى البيانة ومر يديه على ملامسها . وكنت أعرف أنا وأخى ذلك منه . فكذلك كان يبدأ دائماً . ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك إلى لعب أغنية سباستيان باخ : إن شئت أن تهيب قلبك فليكن ذلك أول الأمر في خفية حتى لا يستطيع أحد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن في وقار وهيبة ، وكانت أمى وكان القيس قد ناما ، ونظر أخى إلى ما أمامه ذاهلاً . أما أنا فأخذتني نظرتي وأخذني غناؤه وأحسست بالحياة كاملة . وفي صباح الغد تقابلنا في الحديقة فقال لى : أكتب الآن أوبرا أرى بظلمتها في دخيلة نفسى وأراها أمامى حينما ذهبت وأينما أقمت . وما أحسن سموت يوماً هذا السمور . فكل ما أمامى ضياء وظهر ونور . وفي شهر مايو أصبحت محظوته بإقرار أخى فرنسوا وحده » وظلت هذه الحظبة حتى سنة ١٨١٠ حين

انقصت عروتها وإن لم تنقصم عروة الحب بين الخطيين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو في سنة ١٨٢٧ وماتت هي وما تزال على عهده في سنة ١٨٦١ . وكان لهذا الحب في نفس بتهوفن وفي حياته الموسيقية أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب في أول أعوام الخطبة زهرة تتضوع بشذا السكينة والخلود إلى صفو العيش مع الناس . وكذلك كانت الألحان التى كتبت في هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترنماً بنعمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف بأغاريد بلبله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى إلى حياته فعمله محباً للتأنق في ملبسه ميالا للاختلاط بالناس والتحدث إليهم حاضر النكتة ظريفاً . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه إلا ضعف بصره الحاد النظرة . ومن ذلك العهد السعيد في حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطاباً بيث فيه لتريز ما يعثه الحب المضطرم في النفس النائرة من عواطف مضطربة متلاطمة . قال فيه :

« يا ملاكى وكلى ونفسى ، انظرى في بدائع الطبيعة واطمئنى إلى ما هو محتوم . . فالحب يلح ، عدلا ، في أن يكون له كل شيء ، ذلك شأنه معى في أمرك ، وهو شأنه معك في أمرى . إن قلبى لمفعم بما أريد أن أثبتك إياه . أيما كنت فأنت معى . إني لأبكى حين أذكر أنك لن تقفى على أول أخبارى قبل يوم الأحد على الغالب . إني أحبك كما تحببني بل أقوى وأشد إلهى ! أبة حياة هذه من غيرك . . فأنت قريبة بعيدة . وأفكارى تتدافع نحوك يا محبوبتى الخالدة ، وهى سعيدة طوراً حزينة تارة تسائل القدر هل هو سيرة عانا . .

أنا لا أستطيع العيش إلا معك وإلا فلا عيش لى . ولن ينال غيرك قلبى أبداً . أبداً ! لم يجب يارب أن يتعد متحابان كل عن صاحبه ، على أن حياتى إنما هى الآن حياة أحران . ولقد جعلنى حبك في نفس الوقت أسعد الناس وأشقاهم ، اطمئنى . اطمئنى . وأحبينى اليوم وبالأمس . ما أعظم تظلمى إليك وما أكثر

دموعى من أجلك أنت . أنت . أنت يا حياتى . يا كلى وداعاً - وأقیمی على حى ولا تنسى أبداً قلب حبيك بتهوفن - لك إلى الأبد - لى إلى الأبد - لنا إلى الأبد » .

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته . ولعله كتبه فى آخر سنوات خطبة تريزله . ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء . وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل هو سیرعاهما تنبىء عن بداية انحلال الخطبة . على أن قلبه وقلبا ظللا عامرين بهذا الحب إلى آخر حياتها . فن كلمات بتهوفن فى سنة ١٨١٦ : « يدق قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة التى دق بها حين رأيتها لأول مرة » .

وفى هذه السنة عنها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الأنعام الأربع البديعة : « إلى العزیزة المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض قلبى لمشهد هذه الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا إلى جانبى » وكانت تریز قد أهدت إليه صورتها وكتبت عليها هذا الإهداء « إلى النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب » . وقد دخل صديق على بتهوفن فى آخر سنة من سنى حياته فألقاه يقبل الصورة ويبكى ويناجى نفسه بصوت رفيع . « لقد كنت جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت كالملائكة الأطهار » . وبلغ من شدة تأثره لفراق تریز أن كتب يوماً إلى أحد أصدقائه « أيها المسكين بتهوفن - محدثاً عن نفسه - ليس لك فى هذا العالم حظ من السعادة ، إنما حظك منها فى رحاب المثل الأعلى ، فلك فيه أصدقاء » وكتب فى مذكراته « إسلاماً ! وإسلاماً تاماً لحظك . أنت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وإنما تعيش لغيرك ولم يبق لك من نعم فى غير فنك . اللهم هبى قوة الانتصار على نفسى » هذا ولم تفتأ تریز تذكر بتهوفن إلى آخر حياتها ، فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك مالم يقف عليه أحد . ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تریز الاجتماعىة . ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع إلى التطير

والذى لانهون الحياة البيئية معه .

على أنه كان قد وصل في سنة ١٨١٠ إلى أوج قوته وجلس على عرش مجده . وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها . . لأنه يتبنا برتنانو المغرمة بمعرفة عظمة الألمان في سنة ١٨١٢ لأول مرة . ولم تكن في حاجة إلى أكثر من مرآة وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت :

« ليس في العالم ملك ولا إمبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » ثم كتبت إلى جيبي تقول . « لما رأيته لأول مرة انمحي الوجود كله من أمامي ولقد أنساني بنهوفن العالم وأنساني إياك يا جيبي . وما أظنني محظنة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدينة الحديثة بمراحل » . وأراد جيبي أن يعرف بنهوفن فتقابلا في حمامات بوهيميا بتولتير في ذلك العام نفسه لكنها لم يتفاهما . فخلق بنهوفن العنيف الحر لا يتفق مع خلق جيبي الرقيق الوداع . ذكر بنهوفن نزهة لها كان فيها قاسياً كل القسوة مع دوق فيار . قال في خطاب بعث به إلى بيتافون أرمن :

« يستطيع الملوك والأمراء أن يخلقوا الأساتذة والمستشارين وأن يفرقوهم في الرتب والألقاب ، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا الرجال والأذهان التي تسمو على الجميع . فإذا اجتمع رجالان مثل أنا وجيبي وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا . ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا في الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيبي نفسه من ذراعي ليقف على حافة الطريق . وعبثاً قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه . عند ذلك كبست قبعتي في رأسي وزررت ردينجوت وسرت وذراعي وراء ظهري وسط الجموع الكثيفة . وأفسح الأمراء والحاشية لي طريقاً ورفع لي الدوق رودلف قبعة . وكانت الإمبراطورة أول من حياني . فالعظمة يعرفونني . أما جيبي فرأى أمامه الجمع وهو في مكانه على حافة الطريق منحني أشد الانحناء وقبعتي في يده . وقد لته أشد اللوم بعد

ذلك لم أغتفر له قط تصرفه » .

ولم ينس جيتي له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو في آخر حياتهما . قال جيتي لزلتر : « بتوفن شخصية لا سبيل مع الأسف إلى تألفها . وقد لا يكون محظنا إذ يرى العالم كرها . لكن خلته في الحياة ليست هي الوسيلة التي تجعل العالم حلوا له ولغيره . على أن من الواجب أن نعتذر وأن نشفق عليه . فهو أصم » . على أن كراهية جيتي لم تمتعه من الإعجاب بتوفن ومن تقديسه وإن جاهد لإخفاء ذلك طاقته ! ذكر مندلسن أن جيتي سمع أحد ألحان بتوفن فحاول إخفاء إعجابه قائلا : « هذا لا يمس القلب ولكنه يثير الدهشة » ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله ، فلم يتألم أن قال : « هذا بديع وعظيم وفوق العقل . إني لأحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتوفن جعل يسأل عن أمره .

وكان الدوق رودلف الذي أشار إليه بتوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضى هو أن يكون أستاذاً لهم . ورغم إعفاء الدوق إياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطراً له بداعي المجاملة من هذه التكاليف . ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء ، أمثال هايدن وموزار ، وإن بقي لديهم شيء من العطف على البائس بتوفن ، وزادوا عليه عطفاً حين بدأ نجم نابليون يأفل . فإن بتوفن لم ينس خيانة هذا الجمهورى الذى اتخذ الشعب سلماً للإمبراطورية . فلما انتصر الإنجليز عليه في موقعة واترلو وضع بتوفن لحناً لانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التى أقامت أُم أوروبا ضد فرنسا . وفي أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحناً حربياً عن « بعث ألمانيا » فلما انعقد مؤتمر فينا على أثر هزائم نابليون كان بتوفن في ذروة عظمته وقوته ، فشارك في أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوروبا ، ورأس في ٢٩ نوفمبر

سنة ١٨١٤ الأركسترا التي لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد » فلما سقطت باريس في سنة ١٨١٥ وضع نشيداً جعل عنوانه « انتهى كل شيء » وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته . هذا الجبروت الذي أباح له بعد موقعة بينا إحدى مفاخر نابليون أن يقول : « من سوء الحظ أنى لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى . إذا هزمته » .

وكان حظ بهوفن مذبذباً : فأتكاد آونة طمأنيته تطول به زمناً حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها أضعاف حلاوة تلك الآونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ أن فكر في هجرتها برغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكرفتز والبرنس كسكى منذ سنة ١٨٠٩ إذ رتبوا له معاشاً أربعة آلاف فلورين على أن يظل في النمسا ليظل فخراً لها . وبرغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فإنه سر بهذا الاعتراف بمجده . فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تماماً في سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحناً ولا نشيداً إلا في دخيلة قلبه .

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهم . فقد أراد أن يدير أوبرا فدلوي في سنة ١٨٢٢ . وكان جلياً منذ الفصل الأول أنه عاجز عن هذه الإدارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل إلى إيقاف التمثيل . ثم عاد بهوفن إلى الإدارة وعاد التمثيل إلى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندلر « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبهوفن : تنح أيها البائس فأنت عاجز عن الإدارة : ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بهوفن ينظر في كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولما لم يفهم شيئاً

ناداني إليه ومد إلى كراسته لأكتب له : فكتبت : أرجوك ألا تستمر وسأفسر لك في البيت سبب ذلك . فإهو إلا أن قفز صاحماً بي : فلنعجل بالخروج . وجرى إلى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتقى على مقعد وسند يديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم . فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجائي أن أصحبه إلى طبيب كان معروفاً بأنه من خير أطباء الآذان . . . وفي كل ما تلا ذلك من صلاتي ببتوفن لم أرى يوماً اليوم القاسي من أيام نوفمبر . . . وقد بقي هذا المشهد الأليم طعنة في قلبه حتى فاجأته منيته .

وفي سنة ١٨٢٤ كان حاضرا تمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئاً ولم يعرف من أمر إجلال الناس لقطعته إلا بعد ما أمسكت مغنية بيده وأدارت وجهه إلى ناحية الجمهور ليرى الأيدي المصفقة والقبعات التي تهتر في الأيدي علامة الإعجاب والثناء .

وعاون يؤم الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة وإعواز ، فهذا الذي كان يفرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين فرضاً وصل في أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه : « اكتب هذه (السونات) في ظروف شاقة . فن الحزن أن يضطر الإنسان للكتابة كي يحصل على الخبز . وهذا هو حال اليوم » . وكتب في مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد أتكفف النامس » . وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه إنه كان لا يستطيع الخروج من بيته في بعض الأحيان بسبب نفوب حدائه .

وفي هذه الأيام الأخيرة كان لا يأنس إلى النامس ولا يعرف غير الطبيعة . فكان يرى هائماً في الغابات والأحراش . وليس له هم إلا تدوين الأنغام والألحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج . قالت تيريزدي برنسويك :

« كانت الطبيعة صديقه الوحيد » وكانت كل مذكراته تفيض هياماً بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذي تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته . ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعاني الطبيعة فيضاً ، حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه « ملك روحها » على حد تعبير صديقه شندلر . كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بهوفن في نفسه : « مهما يتكرر سماع الإنسان لهذا اللحن فإنه مؤثر فينا بنفس القوة التي أثر بها من قبل . فهو كالظواهر الطبيعية التي تملؤنا دائماً خوفاً ودهشة مهما تكررت حدوثها » .

ولعل بهوفن كان محباً للطبيعة ، لأنه من روحها لا لأنه ملك هذا الروح ، ولذلك كانت حياته ، ككل ما في الطبيعة ، حياة نضال لا يعرف اليأس ، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود . فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذي بلغ الإعواز ، يمنع له من أن يتم في عالم النغم رسالته . أو تدرى ما هذه الرسالة التي كان يجهاد في سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض . فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتي بالغ الصانع في إتقانها ، فما تزال مبعث أحلى الأنغام وأبدعها . ولقد كان بهوفن يؤمن برسالته هذه كل الإيمان . ومنذ ظهرت بوادر نبوغه في الموسيقى فكر في تبليغها للناس عن طريق الألحان ففكر فيها وما يزال في يونية سنة ١٧٩٣ . وكانت نهاية أمله أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة . وكان ذلك دأبه وهو في أشد حالات العذاب والألم . لكنه كان يتردد دائماً أن لم يكن شيء مما وضعه ليكني مقنعاً لصورة المسرة عنده . وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع . حيثئذ وفق لهذا النشيد الذي يرجوه . ولكن أى توفيق وأية عظمة !

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذي يختم اللحن التاسع : « ساعة

تبدأ آية المسرة تبدو يقف الأوركسترا فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسياً رهيباً . وذلك حق . فهذا النشيد إله وحده . ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى إلى القلب جريان البرء في فؤاد المريض ، ثم تسمو بعد ذلك في صور من الجدل المهيب رويداً رويداً حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حرباً على الألم عواناً . ثم إذا الألمان تحرك في النفس جنود السرور تحمها فوق هذه الصحف المرتعشة فكأنما ترى نبض يتوهن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكه قوة الشياطين . وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالإيمان ، ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هي مسرة الحب . ثم ترى إنسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة إلى المسرة تضمها إلى قلبها .

هذه القوة العجيبة التي تبدو في أكثر ألحان بيتهوفن والتي بدت في لحن المسرة مضاعفة ، جعلت كثيرين يذهبون إلى أن ملكه في الموسيقى يقف عند الضخم منها والأليم . قال هبوليت تين رداً على هذا وتحليلاً للموسيقى بيتهوفن عامة : « نعم إنه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الأعاصير وتعصف فيها العواصف بأصواتها الصاخبة القوية وهذه المملكة لم يتح لغيره من الموسيقيين أن يدخلها . لكنه يعيش كذلك في ملك آخر . فأفخر ما في الريف الناضر وأكثره رواء وبهجة ، وأعذب ما في الوديان الظليلة وأكثره ابتساماً ، وأشد ما في ضياء الفجر أول مطلعته رقة وبكورة - هذا كله كذلك في ملكه . لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الألم ! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة ، فهو ليس سعيداً ، ولكنه في بهر . فثله مثل رجل قضى ليلة نابغة وخرج منها مضطرباً كليماً متوقفاً يوماً شراً منها ، فإذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد . إذ ذاك تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعرق صدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة

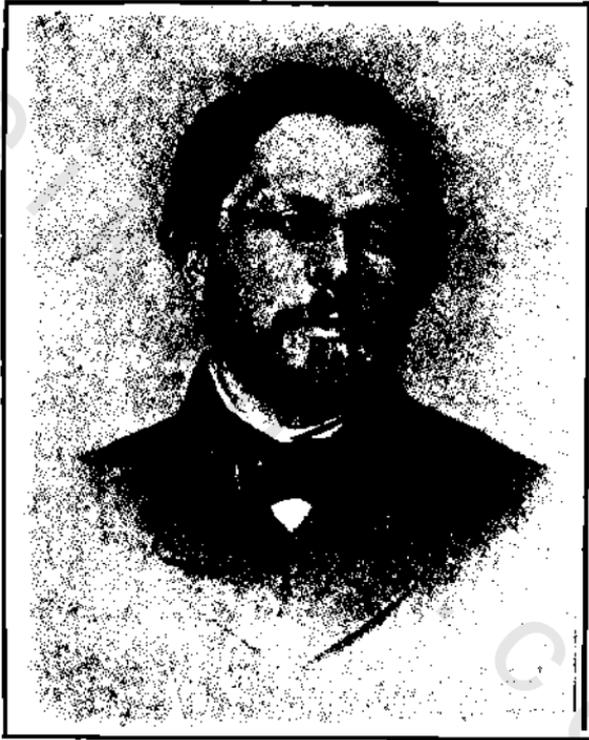
فتسرد سلطانها ، ويصبح في نهله من النعيم أشد اندفاعاً مما كان حين استسلامه لليأس .

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو النجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وإن ظل يعاني من بأسائه شر ما يعانیه إنسان . ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التي كان أخواه يقتضيانها من الناشرين ، فقد مات أحدهما تاركاً من ورائه ولداً أحبه بيتهوفن بهذه القوة التي كان يتدفع بها إلى كل شيء . وسار الفتى سيرة سيته لم يصلح منها حب عمه إياه ولا مداومته نصيحته . وكان هذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بيتهوفن في فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بيتهوفن في خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا ، فلما عاد في أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحد من أصدقائه حاضراً ليعني به . فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنتى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بيتهوفن علاجاً سيئاً . وقد استطاع بقوة بنيتة أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعاً ، لكنه ضعف بعدها ضعفاً أضاع الأمل في شفائه ، ولولا كرم بعض الإنجليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه في بؤس وشقوة ليس كمثلهما بؤس ولا شقوة . ثم جعل ينتظر في صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ ، إذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت من الطبيعة أصوات موسيقاها المبهوية المخيفة . وعلى موج هذه الأصوات طارت روح بيتهوفن إلى عالم الخلد ، وكان عمر بيتهوفن يومئذ ستاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام فلما آن لجثمانه أن ينقل إلى مقبره الأخير شيعة ثلاثين ألفاً ولبست فينا عليه الحداد ، ودفن في مقبرة وارنج ، وما يزال قبره إلى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بيتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إلهاماً أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ويتمثل

أفكاره في عرف الآلات أكثر مما يمثّلها في ألفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس يستصق للإنسانية الرحيق العذب ويحلى عليها أقدس ما في الروح من جلال » . قضى ونقل إلى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه المائل في ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقياً ولن يزال . وهل الروح الخالد إلا العمل يترك به صاحبه في العالم أثراً خالداً؟ وهل أثر أخلد من موسيقى بهوفن ! أو هل أكثر منها سحراً وقداسة؟ ! واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام إجلالاً لألحانه القدسية السامية ، فيؤدى بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة . (كتبت في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بهوفن)

هبوليت أدولف تين



احتفلت فرنسا منذ أيام مرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسي الكبير هوبلوت أدولف تين فقد ولد بفوزيه في الحادى والعشرين من أبريل سنة ١٨٢٨ أى منذ مائة سنة مضت . وإذا لم يكن قد مضى على موته إلا خمس وثلاثين سنة - إذ مات بباريس في الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ - فإن الآثار التاريخية والأدبية والفلسفية التى خلفها تجعله حقيقاً منذ اليوم بأن يسجل في ثبت الخالدين ، وتعمل حقاً له وواجباً على وطنه فرنسا أن يشيد بذكوره بين من يشيد بذكورهم من عظماء تلك البلاد . بل إن هذه الآثار لتجعل حقيقاً منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم ، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح أمامه من أسباب البحث سبلاً إن يكن غيره قد ترسمها من قبل فإن أحداً سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التى رسمها

وخططها بها تين . ويكفي ليقدر القارئ مدى هذا الأثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه كان أكبر أثراً فى نشر الفلسفة الواقعية (البوزنفرم) من صاحبها أوجست كومت نفسه . وإنه إلى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر وفى كل نشاط العقل الإنسانى والنفس الإنسانية بما جعل للعلم الوضعى ولللسلطة الوضعية من مائة الأركان ما لا يزال حتى اليوم وطيداً قوياً غاية القوة ، برغم موجات الروحية والتيزوفية وغيرها مما سبق الحرب وشجعت الحرب ، وبما لا يستطيع أن يقاوم - حتى فى ميادين الفلسفة البحتة - تيار العلم الجارف الذى يدل التام كل يوم على أن العلم إذا أخطأ فى تقرير نتائج معينة لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج ، فالعلم وحده هو القدير على إصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هذه من تبويب ينتهى إلى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساساً لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة .

رجل هذا أثره فى التفكير الإنسانى لا يمكن لوطنه إلا أن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة ، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الإنسانى وتوجيهه فلسفته فى فترة خاصة من حياة هذا التفكير .

على أن لتين إلى جانب هذا الفضل العلمى العظيم فضلاً آخر لا يقل عنه ، بل يريد بعضهم أن يذهب إلى أنه يفوقه . ذلك هو فضله ككاتب . فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الأستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر إلى جانب التفكير الواقعى positive المذهب الجبرى «determinisme» وأن يطلق هذا المذهب على الإنسان

ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الأفلاك والموجودات كلها - هذا الرجل كان صاحب أسلوب في الكتابة له من البر ما يسحرك كما تسحرك قطعة من الموسيقى أولحن من الغناء ، حتى ليدعوك إلى أن تعود إلى قراءة الصفحة مرات ، وحتى ليترك في ذاكرتك صحفا معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود إلى قراءتها وترديدها بصوت عال لتسمع إلى ألحانها كما تسمع إلى ألحان أوركسترا بيتهوفن . وإني لأذكر الآن على ذكر اسم بيتهوفن فصلا له في كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) فصلا عنوانه (خلوه une tete à tete) وصف فيه إيقاع ألحان بيتهوفن وصفاً ما أزال ولن أزال لُذ لقراءته ولترديده لنتي سماع ألحان هذا الموسيقى في سمفونية الريف التي أحبها ولا أشبع من سماعها . وليس هذا الفصل الذي ذكرت إلا واحداً من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التي كتبها تين والتي لا تفتأ ترد إلى الخاطر وتردد في خلايا الذاكرة كلما ذكر الإنسان النغم الحلو الساحر في تعبير الكتاب في أية لغة من اللغات .

ولعل أروع ما كتبه تين في هذه الناحية الأدبية هو ما كتبه في الوصف والسياحة : فكتابه الذي ذكرت لك عن باريس ، وكتابه « مذكرات عن إنجلترا » وكتابه عن جبال البرانس ، وكتابه عن رحلته في إيطاليا ، هذه كلها كتب بلغت فيها براعة الوصف مبلغاً قل أن يجاربه فيه كاتب . ولقد ذكرت لك هذه القطعة عن موسيقى بيتهوفن . وأنت تعلم أن الكاتب إذ يكتب مثل هذه القطعة إنما يعتمد على ذاكرته . وذاكرة السمع هي التي كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى . مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين . بل لقد ذكر لنا هو نفسه في كتابه De l'Intelligence أن أقوى ذاكراته ذاكرة الألوان ، وأن المنظر الذي تقع عليه عينه تختزنه ذاكرته أكثر مما تختزن أية صورة تتصل بإحدى الحواس الأخرى . فإذا كان ما ذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ما وعت ذاكرة السمع عند تين ،

فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعته ذاكرة المراثيات وألوانها عنده . وكيف استطاع بأسلوبه المتموج الزاهى الشديد الحركة والحياة ان يثبت الألوان المختلفة التى اخترنتها ذاكرته فى سياحاته الكثيرة .

وليس فضل تين مقصوراً على فلسفته وعلى أدبه ، فهو إلى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين ، أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لأنه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده . وإذا كان كتابه « أصول فرنسا الحديثة » الواقع فى اثنى عشر جزءاً هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى ، وكان يتناول عصر ما قبل الثورة كما يتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ، فإنه قد تناول إلى جانب هذا التاريخ بحثاً أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التى ستعرض فيما بعد لها . وتناولها بدقة فى البحث وبدقة فى العبارة وقوة فى الأسلوب جعلت له كل هذه المكانة التى كانت له فى عصره ، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ويكفى أن يطلع الإنسان على كتابه « تاريخ الآداب الإنجليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الإنجليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مباحثه التاريخية الأخرى . ومباحثه التى مزج فيها التاريخ بالأدب فتزيدك بهراً ودهشة . اقرأ « تيت ليف » وعصره من عصور التاريخ الرومانى . اقرأ « لافونتين وأفاصيصه » . اقرأ كنه الثلاثة « رسائل فى النقد وفى التاريخ » ثم مسائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الأشياء خبراً ، وكيف كان يصنع ليمحصها كل هذا التحجيص ، كان يصنع ليكتب ، وكيف كان يصنع ليؤدى كل هذه الأعمال ، وليؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة .

ورسائله فى النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفاً بفضله وبسلطانه ، وقد

أقامت له مذهباً في النقد يتسق مع مذهبه في الأدب وفي التاريخ وفي الفلسفة وفي كل ما تناول من مباحث . وعندى أن مذهبه في النقد أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد المذاهب إمعاناً في « الموضوعية » . هو إذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصي للكتاب أو لصاحبه ، ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف . وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممن عاصره ورمى إلى مثل غرضه . ولست أدري إذ أقول إن مذهبه أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه : أأنا متأثر بتقدير ذاتي أم بذكريات خاصة . فلقد قرأت كتبه في النقد والتاريخ منذ أكثر من اثني عشرة سنة وتركت في نفسي من الأثر ما لم تتركه كتب أناتل فرانس « الحياة الأدبية » وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيغ نفسه . ولست أشك في أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول لمترو أو فاجيه أو بورجيه أو بول سوداي أكثر من تذوقهم نقدتين . وربما كان حكيمى أنا أيضاً بتغير لو أن الظروف التي أحاطت بقراءتي تغيرت . لكنى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر في نقده ، ولو لنفسى ومن غير أى فكرة في الكتابة عنه ، على الطريقة التي أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين . لتين إلى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه ، بل كان فيه ، كما كان في بعض الميادين الأخرى ، مدرسا أيضاً ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقياً ، فلا عجب إذا هو تحدث أو كتب عن الفن الجميل . لكنك إذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحلل الفن وصوره وتماثله بالطريقة عينها التي يحلل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والأنغام لقواعد الجبرية التي يخضع لها كل ما في الوجود من سماوات وأفلاك وكائنات . أليست الفنون بعض ثمرات الإنسان ، « والإنسان ثمرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرة وفي غير موضع ؟ والوسط الذي يعيش فيه الإنسان ليس خاضعاً له ولكنه

خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له بها ولا سلطان له عليها . إذن فالفن ثمرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببسطها أن تفسر وأن تفهم أى عمل من أعمال الإنسان .

ولكن ليس معنى أن « المرء ثمرة وسطه - أو بيضة إن شئت » أن الناس يتساوون فيما بينهم كما يتساوى ثمر الشجرة الواحدة بل إن ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى ، فنه الكبير والصغير ومنه الصالح والفاقد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاقد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة بأن تشقه وأن تصل إلى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل إلى دخيلة الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الأمر هين يدلك عليه تين في مختلف من مواضع كبه ، ويدلك عليه بنوع خاص في كتابه عن « الذكاء » ويفرد له مقدمة الطبعة الأخيرة من تاريخ الأدب الإنجليزي التي طبعت سنة ١٨٩١ .

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هي المسالك إلى دخيلة نفسه . فإذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث في هذه العجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكننا مع ذلك نكتفى بالقليل الذي أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذي لا سبيل إلى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تسنى إلا لأستاذ في الفلسفة أو في الأدب الفرنسى . ولعلنا في هذا الاكتفاء بالقليل الذي نعرف لانغضت تين حقه . ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية في النقد فأماننا بعض الشيء عن حياته ، وأماننا مؤلفاته الكثيرة ، وهي صورة نفسه وخلاصة حياته ، وأماننا إلى جانب هذا أسلوبه ، والأسلوب - على ما قال تين - هو الإنسان .

ولد هبوليت تين إذاً بفوزيه بمقاطعة الأردن في فرنسا في ٢١ أبريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لايه جان باتيست تين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه تعاليمه إلى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وإذ ذلك مرض أبوه فأرسل به في سنة ١٨٣٩ إلى مدرسة دينية في (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهراً توفي أبوه خلالها تاركاً ثروة بسيطة لأرملته وابنه وابنتيه ، وبعد وفاة أبيه سافر إلى باريس فالتحق بمعهد ماته . وكان تلاميذ هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون College Borbon ، وفيها ظهرت بوادر كفاياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أثر أبلغ الأثر في مستقبل أيامه من أمثال بروفوارادول ، وبلانا ، وكرونوليس ، وفث وغيرهم .

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وإكجاب عليه لا يقل إثارة للمهشة . فلقد كان يكتفي لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعباً بعد العشاء وساعة يلعب في أثناءها الموسيقى بعد الغذاء ، أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف . وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعاً نفوذاً معترفاً به منهم اعترافهم بفضلهم وبمقدرته في الكتابة نظماً ونثراً في اللغتين الفرنسية واللاتينية .

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل إلى مدرسة المعلمين L'Ecole Normale . وفيها ازداد إكبابه على الدرس فقرأ أفلاطون وأرسطو وآباء الكنيسة كما استمر يدرس الإنجليزية التي أنقنها ليدرس آداب اللغة الإنجليزية . وإذا كان تين قد ظهر تفوقه في أثناء دراساته الثانوية وفي أثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الأولى كلها من نصيبه ، فإن الروح العلمية المنطقية التي امتاز بها بعد ذلك والتي وضع على قواعدها مذهبه في البحث ، قد تبينت في أثناء وجوده في مدرسة المعلمين بنوع

خاص . فقد لاحظ عليه أساتذته جميعاً مبالغته في دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلماً رياضياً والوصول به دائماً إلى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون في مسائل الحساب والهندسة والجبر ، أثبت أساتذته فاشرو في مذكراته عن تين ، وما يزال تين طالباً بمدرسة المعلمين ما يأتي : « أكثر تلميذ عرفت في المدرسة جداً ورقى نفس . علم مدهش بالنسبة لسنة . تحمس وشره للعرفان لم أر له مثالا . ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوة التفكير ، لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة . مولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحى بالحقيقة من أجلها ، ومع ذلك لا يظن أنه يضحى بالحقيقة لأنه كان مخلصاً لها أشد إخلاص وسيكون تين أستاذاً ممتازاً لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالماً من الطراز الأول إذا اتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمناً طويلاً . ومع ماله من دماثة في الخلق عظيمة ومن طباع غاية في الطيبة ، فلذته قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير . وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم . فيكون شعاره شعار سبنوزا (يعيش ليفكر) أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستويه معها إغراء » .

على أن هذا التفوق الذى كان للطلاب تين لم يكن ليعترف الناس به من غير أن يجنى على صاحبه جنايته . ومتى كان تفوق رجل من الناس تفوقاً عقلياً ألا يجنى عليه في نظر السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات ؟ ! صحيح أن هذا التفوق يقدر عند المخلصين والذين لا مصلحة لهم في سؤدد آراء ومبادئ معينة ، وهذا التقدير هو الذى يكفل انتصار الحق ولو بعد حين . لكن تين ، الذى كان يقضى كل وقته قراءة وبحثاً ، والذى أوفى هبة النقد والتحميص منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقد الحق ، تين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليترك كثيراً من المبادئ الفلسفية التى كانت تدرس يومئذ وغايتها إما تأييد ناحية دينية تجعل

التفكير خاضعاً للمبادئ المسيحية التي تريد للكنيسة أن تسود ، أو تأييد ناحية علمية خاصة هي ناحية المنطق المطلق ، أو المنطق المجرد ، مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر ، وقد خرج تين ، وما زال طالباً ، على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير ورأى فيها وسائل غير صالحة للكشف عما في العالم من حقيقة . ووضع تين ، وما يزال طالباً ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد التي سار عليها في مستقبل أيامه ، مجاهداً لإكمالها ما استطاع . ولكن من غير أن يرى في كل دراساته وبحوثه ما يطمئن عليها أو ينقضها . وإذا فهو ناثر على التعاليم المقررة . وإذا فيجب ألا ينجح في إجازة الفلسفة التي تقدم لها مع زميله أوييه وسوكو في سنة ١٨٥١ . وليكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للإجازة نفسها فرسبوا وهم دونه تفوقاً وفضلاً .

ولم يغير عدم نجاحه في إجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه . واستمر في عمله وبحوثه وإن اشتغل بالتدريس في المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرساً بمدرسة (نغير) في مفتح عام ١٨٥١ الدراسي . لكنه لم يبق في هذه المدرسة إلا شهوراً نقل بعدها إلى مدرسة دونها في الدرجة . ذلك أن اضطراباً سياسياً وقع في فرنسا واتهم المعلمون بأنهم سبوا وطلب إليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التي أدخلها على نظام الحكم ، فكان تين هو الوحيد الذي رفض الاعتذار والشكر . وعلى ذلك أنذر ونقل إلى بواتيه ومنها نقل مساعد مدرس إلى بزانون سبتمبر سنة ١٨٥٢ .

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضا السلطات عنه فإن نشاط تين لم يقتر ودراساته وتحصيله لم يهنا وإيمانه بمذهبه في البحث لم يضطرب . فقد وضع رسالة عن المشاعر Les Sansations أو رسالة لاتينية تقدم بها إلى السوربون لنيل إجازة الفلسفة . ولما كانت هذه الإجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بها إجازة الآداب

Aggregation- es- lettres لكن طريقته في التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته . فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هي التي نال بها دكتوراه الآداب في ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ .

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الأكاديمية الفرنسية موضوعاً لجائزة تمنح في سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الروماني الكبير ، فتقدم لهاتين وكتب فيها رسالة كانت هي الأولى بين كل الرسائل التي قدمت . بعد هذه المجهودات المضنية ست سموات تباعاً شعرتين بالحاجة حاجة ماسة مطلقة إلى الراحة ونصح له بأن يذهب إلى جبال البرانس ، وطلب إليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلاً عنها فوضع كتابه « سياحة في البرانس » وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفاً دقيقاً ، ناقداً ما رأى موضعاً لنقده مازجاً ذلك كله بفلسفته ، متبعاً حتى في هذا الكتاب طريقته الجديدة التي جنت عليه من قبل .

ما هي هذه الطريقة الجديدة ؟ وكيف يمكن أن تجني على كاتب في عصر كالعصر الذي عاش فيه تين والذي تقررت فيه حرية الرأي والنشر على أنها مكفولة مقدسة ؟

أما طريقة تين في رسائله التي تقدم بها للامتحانات وفي كتاب تيت ليف وفي غير ذلك من الكتب التي ظهرت والتي ستظهر حتى آخر أيام حياته ، فتقوم على فكرة أساسية هي تطبيق الطريقة الواقعية - أو الوضعية - التي قررها أوجست كومت على الأحياء بنفس الدقة التي تطبق بها على غير الأحياء . وتطبيقها على الإنسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التي تطبق بها على الأحياء الأخرى غير الإنسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث العلمي في شأن غير الأحياء هي الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة ، فيجب اتباع هذه

الطريقة بعينها في شأن الحيوان والإنسان على السواء ، وأنت لكي تدرس غير الأحياء فأنت تحلل الشيء ، وأنت ترجمه إلى نظائره وأشباهه ، وأنت تلاحظ تأثيره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد إذ تنظم ملاحظاتك وتجاريبك وتبويبها وترتيبها . ثم أنت تعتمد لتقف على حياة الحيوان إلى تأثيره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به ، كما أنك إذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت إلى ما قد يكون باقياً في الأحجار من آثاره ، هذا فضلاً عن التجائلك في تجاريبك عليه إلى كل الوسائل المختلفة التي يلجأ إليها الكيميائيون والأطباء وغيرهم في معاملهم ، ذلك كذلك يجب أن يكون شأنك مع الإنسان . يجب ألا ترى فيه عالماً مستقلاً وسط هذا العالم الذي تعيش فيه . إنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه تجرى عليه السنن التي تجرى على غيره من الخلائق . فإذا أردت أن تبحث في أي شأن من الشؤون يتعلق به وجب عليك أن تلجأ إلى الطرائق العلمية التي تلجأ إليها في الظروف الأخرى وأن ترى في أعماله ومشاعره وإحساسه وتصوراته وسائل الوصول إلى دخيلة نفسه . هذه دون سواها هي الطريقة الأكيدة التي تصل بك إلى شيء يقرب من الحقيقة . وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصلة بالإنسان جميعاً . فأما الطريقة التي تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التي تجعل من استجمام الشخص في طوایا نفسه وسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته ، فليست من الطرائق العلمية في شيء ولا يمكن الاعتماد عليها إذا نحن أردنا أن نقيم علماً إنسانياً أو فلسفة إنسانية على قواعد علمية صحيحة .

هذه هي الطريقة الجديدة التي امتاز بها تين والتي جنت عليه في كثير . وهي قد أصبحت اليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أماسه ما فيها من نظرف وغلو . ولكنها كانت جديدة يوم نادى بها تين . وكانت عاداً قوياً للمذهب المادى . فهى

لاتفر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدنولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هي ترى كل ما في الجسم بعض مادته كما أن ما في أي موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود . وإذا كانت هذه المادة ذات إرادة وذات خلق وذات تصور وتفكير . فإن هذه المظاهر ليست إلا صور القوة الكمية في المادة ، أو إن شئت التعبير الدقيق ، فهي بعض صور المادة متحولة إلى قوة لأن المادة والقوة شيء واحد بدليل تحول كل منها إلى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن نجد لها تبديلاً ، فن الحلط الذي لا يبره مبرر أن تختلف طريقة البحث في الإنسان عنها في غير الإنسان ، ومن الخطأ المبني على العقائد الراجحة انتهاج سبيل في بحث شئون النفس غير السبيل العلمية المقررة في سائر الشئون .

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفنا الأنظار له . وبخاصة أنظار مفكرى ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة في التفكير وفي الحكم . وإذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكر في حرية مكفولة ولا في حرية مقدسة . إنهم ، إن كانوا مخلصين حقاً ، يعتبرون أنفسهم حاة الجمعية ونظامها ، ويرون في محاربة الأفكار التي تخالف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وكثيرون منهم يشعرون ، وإن لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لا توجد إلا حيث يوجد النظام .

ونشر كتابه « سياحة في البرانس » وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق في وصفه وفي تحليله نظرياته التي أشرنا إليها . على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضة ويوضع هذا الكتاب ، بل هو ظل يستمع لقارىء استصحبه في جولاته وظل يفكر فيها يسمع ويعلق عليه . أليس شعاره أنه يعيش

ليفكر فإذا هو كان في رياضة قضت بها صحته ، أو هو كان في مكتبه ، فليس أمامه ما يمنعه عن التفكير كما أنه ليس أمامه ما يمنعه عن التنفس . ولقد كان فكره بحاجة إلى العمل حاجة رثية إلى الهواء ، حتى لقد نجح إلى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر إذا هو انقطع عن التفكير العلمي الجدى يوماً من الأيام .

ولقد أفاد من سياحاته في البرانس لصحته ، وأفاد من قراءته وتفكيره وأفاد شيئاً جديداً لم يكن له من قبل به عهد . ذلك اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصلا عدوداً فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الألحان التي يحبها والتي يجد فيها سلوة عن كل تعب . وكان من أثر ذلك عليه أن جعله - على ما قال فاشرو - يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة ، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيراً ما يضحى بالحقيقة من أجلها . أليس ما في الكتب منطق مجرد ! أو ليست كتب ذلك العصر ، حتى كتب الفلاسفة الواقعيين ، قليلة التحليل للوقائع الصغيرة ! فلتين عذره إذا هو سارع إلى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد مادام يسير على الطريقة التي رسمها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة ، وما دام لم يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً يجعله أكثر ميلاً لتحليل الحوادث الصغرى واستقراؤها وترتيب النتائج عليها . فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئاً من الثؤدة في منطق الرياضى السريع وجعلته أكثر عناية باستيعاب أكثر ما يستطيع استيعابه من الوقائع الصالحة لإقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد .

وعاد من البرانس فعاش مع أمه في جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو برادول وأبو وتعرف إلى رينان ، ومن طريقه عرف سانت بيغ وجدد علاقته مع مسيو هافيه الذى كان أستاذاً بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر . وكما عاد إلى أصدقائه عاد إلى جده وإنتاجه حتى لتعتبر الستان ١٨٥٥

١٨٥٦ من أكثر سني حياته نشاطاً وأغناها إنتاجاً . فلقد نشر عشرات المقالات في مجلة (L'Instruction Publique) كما نشر مقالاً في مجلة « العالمين » . وفي سنة ١٨٥٧ بدأ يكتب جريدة « الديبا » واستمر بعد ذلك على مكاتبها طويلاً . والذي يقرأ كتبه الثلاثة « رسائل في النقد وفي التاريخ » وكتابه « الفلاسفة الإنشائيون في القرن التاسع عشر » يرى اتجاه مجهوده العقلي في تلك السنوات الخصبة من حياته ، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذي تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب إنجلترا ومفكرها . وتناول ذلك في دقة وإحاطة قل نظيرها . وماذا تريد أن تكون الدقة والإحاطة أكثر من أن يعرض تبن أمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وأن يحلل ذلك وأن يرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكاتب فيها وأن يدللك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو في الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكال ونقص ودقة في بلوغ الغاية التي قصد إليها الكاتب أو اضطراب في نهج السبيل إلى تلك الغاية . وهذه هي طريقته التي سار عليها منذ تلك الأيام في النقد . وهي الطريقة العلمية الصريحة التي لا تعرف المواربة ولا المدحجة ، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد ، والتي تفكك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين .

وقد طبع تين مباحثه عن الفلاسفة الإنشائيين ونشرها في أوائل سنة ١٨٥٧ ، أى في التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه إلى ما قبل ذلك التاريخ قد لقي من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عتاً ، فإن رسائله المختلفة التي نشرت لم تثر من النقد إلا ما كتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الأستاذ الكبير جيزو عن تيت ليف . لكنه ما لبث أن نشر « الفلاسفة الإنشائيين في القرن التاسع عشر » حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بيغ وشرر وبلانش وغيرهم مما زاد

في ذبوع رفعة ككاتب وكفيلسوف مجدد في الطريقة وفي الأسلوب . ولم يكن عجباً أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة . فهو قد قصد به إلى هدم الفلسفة الكلامية التي كان يدرسها ويقرها في ذلك الوقت لأرجميه ومين دبيران والمسيو فكتور كوزان . وكان فكتور كوزان صاحب مقام كبير في ذلك الظرف ، وكان القائم بتدريس الفلسفة في كلية فرنسا ، وكان درسه مقصد المئات من المستمعين . لذلك كانت حملة تين عليه أشد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه إنه بجانة غير فيلسوف . وكان يرى في هذه الفلسفة الكلامية أو الإنشائية شذوذاً معيباً على قواعد العلم التي تقررت منذ أوائل ذلك القرن ، وعودة إلى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكرات التي تبدأ بالشك ، والنظريات الألمانية التجريدية الصرفة . وهو قد سلك في هدمه لتلك النظريات مسلكاً جمع بين المنطق الدقيق الذي امتاز به وبين التهكم بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة نهكاً ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب إلى جانب تفوقه كمفكر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قرره مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعي وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف إلى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقاً لا هوادة فيه على الإنسان كتطبيقه على غير الإنسان وعلى الجهاد . وإذا كانت هذه النظرية قد لقيت في بادئ الأمر شيئاً من معارضة الهيئات الجامعية ، فإن المباحث العالية التي نشرها تين مشبعة بها والمقام الذي كان يرتفع إليه يوماً بعد يوم وعماماً بعد عام ، جعل نجاح كتابه عن الفلاسفة الإنشائيين نجاحاً حاسماً ودعا الكثيرين إلى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلاسفة من قواعد ، وجعل ما وجهه كارو وغيره إلى تين وإلى رينان من نقد أساسه رمهيم بالإلحاد ، لا يلقى من المفكرين والعقلاء وذوى الرأي أى التفات له بأكثر من الإشفاق على كاتبيه والثناء لحالهم .

وكما جمع مقالاته عن الفلاسفة في كتابه هذا فقد جمع رسائله في النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل في النقد وفي التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية في الأدب الإنجليزي شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى برون في سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا الكتاب الذي يعتبر ككتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أمّا من أهمّات كتب تين وأثراً باقياً من آثار تفكيره . وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملاً في سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التي أشرنا من قبل إليها والتي حلل فيها صلة الإنسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذي يولد فيه تحليلاً انتهى منه إلى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وإنك إذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للإنسانية من القوانين الثابتة مالا سبيل إلى تغييره إلا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيل .

والحقيقة أن هذا الكتاب الذي وضعه تين عن آداب اللغة الإنجليزية قد أضاف إلى مجده كفيلسوف وكمؤرخ مجده ككاتب . ولئن كانت رسالته عن «مياحة في جبال البرانس» قد دلت من ذلك على شيء كثير ، فإن وصفه للعصور المختلفة التي مرت بها إنجلترا وأثرت في أديها قد دل على خصب في الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة في المنطق . وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المتألية تنتقل من تحليل نفساني دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، إلى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعري حياة ذلك الكاتب أو الشاعر وحياة جماعة أهل ذلك العصر . وهذا التداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذي طوع لكثيرين من نقادتين أن يقولوا عنه إنه منطيق شاعر أو خيالي فيلسوف . وربما وجدت لهذا النقد في بعض كتب تين مسوغاً . لكنك تقع دائماً على ما يدلك على

أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على ألا يجنى أحد جانبي نفسه على الجانب الآخر . فما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آناً بعد آناً يذكر فيها أنه جاوز الحد مضطراً في استعمال المجاز وفي الالتجاء إلى الخيال ويعود بعدها إلى منطقته المحكم وتحليله الدقيق ، فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه ويطبق ما يستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحلهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الإنجليزي الذي استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين .

وكان تين قد رشح نفسه سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب في مدرسة الهندسة . لكن مسيودي لموفى انتخب بدلاً منه . على أن وزير الحرب عينه في مارس من السنة التالية ممتحناً في التاريخ واللغة الألمانية بمدرسة سان سير الحربية . وفي سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة ، فكان تعاقبه في وظائف الدولة سبباً لإثارة الحوف في نفس رجال الدين مما دفع المونسنيير لوبانلو ليكتب منشوراً يوجه به إلى الشبيبة وإلى الآباء يطعن فيه طعناً جارحاً على تين ورينان وليتري ويشهر فيه بترعاتهم الإلحادية مما كاد يودي بمركز تين لولا تدخل البرنيس ماتيلدا لحمايته .

وفي سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه إلى الأكاديمية ليحصل على جائزة بوردان ، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه وآخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة ، على أن مسيو جيزو دافع عنه بكل إخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأي بعدها على أن الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لا تمنح لتين . ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالأكاديمية وتعصيدها أو عدم تعصيدها له .

على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجني على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونير في سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة E.C.L. من جامعة أكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورنى في سنة ١٨٧١ .

ومنذ عين تين أستاذاً لتاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر إلى بلاد مختلفة وبخاصة في إيطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار .
على الطريقة التي كتب بها تاريخ آداب اللغة الإنجليزية كتب في سنة ١٨٦٥ كتابه فلسفة الفن وفي سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الأعلى في الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكى والفن اليونانى ضمت كلها بعد ذلك إلى كتاب فلسفة الفن .

كتب هذا الكتاب على طريقته في كتاب آداب اللغة الإنجليزية . فإلى جانب وصفه المتع للآثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التي تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الإنسانية ، وكما تخضع الإنسان نفسه ، إلى الطريقة العلمية في البحث ، طريقة التحليل والمقارنة والاستنباط وإرجاع كل أثر من هذه الآثار إلى البيئة والجنس والعصر التي نشأ فيها صاحب الأثر . وهذا في نظره هو السبب الأساسى لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها . فالفن الإيطالى غير الفن الفرنسى وغير الفن الفلمنكى وغير الفن الإنجليزي لأن البيئة الإيطالية تختلف عن كل واحدة من هذه البيئات الأخرى وإن أمكن أن يوجد شيء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة إذا هي كانت معاصرة بعضها لبعض لما في هذه المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة في التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة ، وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة

إذا هي اختلفت عصورها وإن كان في اتفاق البيئة والجنس ما يبعث إليها شياً قوياً يصل بينها في الروح والحياة .

وفي أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتاباً ثانياً من أهماته كعبه . ذلك كتابه (في الذكاء) . ولقد ذكر هو في مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة « المشاعر » التي قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة في سنة ١٨٥١ صلة كبرى . ذلك بأنه يرد الذكاء في الإنسان إلى إحساسه ومشاعره . وإن كل حس يؤثر بمحسوساته في مراكز الذكاء في الإنسان تأثيراً هو صاحب الأثر الأكبر في تكوين هذا الذكاء . وفي هذا الكتاب أيضاً شرح تين نظرياته ، بل لعله في هذا الكتاب وحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبه الجبري بكل قوته ووضوحه .

ظهرتين كثير غير الكتب التي ذكرنا منها كتابه (مذكرات عن إنجلترا) وكتابها الآخر (مذكرات عن باريس) . وإذا هو كان في الكتاب الأول كاتباً ومحللاً على طريقته فهو قد امتاز في الكتاب الثاني بالنكته المقدعة وبرقة في العبارة مع دقة في الملاحظة ومراة في التهكم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يتمنون لو أنه وجه نصيباً كبيراً من عنايته إلى هذا النوع من الكتابة .

وتزوج تين في سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئاً من حياة الجهد والعمل التي كان يجيهاها . على أنه منذ سنة ١٨٧٠ ، وعلى أثر الحرب الفرنسية الألمانية ، حز في نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها . وكان هذا هو الدافع له إلى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذي عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ إلى أن مات في ١٨٩٣ والذي اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعاً تاماً . ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم . أي العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسية . أما تاريخ الثورة فيتناول ستة

أجزاء ، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهريس للكتاب كله . ولقد كان في عزمه أن يضع - في الجزء الذي لم يمهله القدر ليطمه - الصورة الصالحة لنظام العائلة ونظام الجمعية في فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون ، لكنه توفي في الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال في الخامسة والستين من عمره .

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التاريخ . ولقد سار فيه على نفس الطريقة التي سار عليها في سائر كتبه . وإن يكن الدافع الذي دفعه لكتابه ، ألا وهو حب وطنه حياً أذكته هزيمة حرب السبعين وزادته ضراماً ، قد جعله في كثير من الأحيان يناصر حزباً على حزب وطائفة على طائفة من الأحزاب والطوائف المختلفة التي حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذي كتب هو عنه . وهو على كراهيته للاستبداد في كل مظهره وعلى تقديسه للحرية في مختلف صورها ، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التي تترتب عليها ، بل كان يحسب فيها هي أيضاً لوناً من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد . لا تقل سوءاً عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين ، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العمياء التي تبتغي المصالح الذاتية في شره وسخف والتي لا تفهم المعاني العليا التي يتطلع إليها العلم ولا السنن الثابتة والتي تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم .

ويذكر كثيرون أنه كان في هذا كما كان في فلسفته متأثراً بالفلسفة الإنجليزية وبالحياة السياسية الإنجليزية . ولعله كان يميل إلى شيء من الإرسقراطية بطبيعة تفكيره ، ولذلك كان كتاب عصره جميعاً إنما يذكرونه باسم (مسيوتين) ، وذلك امتياز لم يعرف إلا له ولاثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه . وربما كان صدقاً ما يقوله مسيو هريو وزير معارف فرنسا في خطابه عن تين من أنه لو كان إنجليزياً وعاش في إنجلترا لكان حتماً أن يلقب وأن يكون (السيرهيوليت) . وهذه النزعة هي

التي أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها مر الطعن على هذا النظام ، ويرى من السخرية أمر السخرية أن بتساوى في الرأي عن طريقة حكم البلاد ماسح الأحذية وعميدو الكليات ومديرو الجامعات كما يرى حماقة أن يحكم نصف الأمة زائداً واحداً نصفها الآخر ناقصاً واحداً أو أن يحكم سوادها الطائش المهدوع بترهات المرررين والمضللين صفوة أبنائها وخلصا ذوى الرأي والعلم فيها حكماً أقل أثره أن يبعث التفزز إلى نفوس الصفوة ويضعف من حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهوداً أقلها خير ألف مرة من جهود السواد وقادته .

• • •

وعاش تين ومات ومنطقه منطقته ورأيه لم يتغير ، وكأنا كان مصداقاً حياً لهذه الكلمة : « النبوغ فكرة في الصبا تنفذ في الرجولة » . فتن كان تين في مدرسة المعلمين إلى أن مات ، كانت غايته في الحياة واحدة وطريقته إلى هذه الغاية واحدة : كانت غايته الحقيقة وكانت طريقه إلى الحقيقة العلم ، حقيقة لا هواده فيها وعلم كذلك لا هواده فيه . ولهذا كان جديراً حقاً بالخلود وإذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته ، فهو في ذلك ليس إلا إنساناً عظيماً . هو قد خطا بالعالم في عصره الخطوة التي كان يجب أن يخطوها العالم . فكأنما كان رسولاً تمام هذه الخطوة ، أما وقد آتم رسالته وأن للعالم أن يخطو خطوة أخرى . فإن ذلك لن يفض من فضله ولن يغمطه شيئاً من حقه ، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدراً له وإعجاباً به . وكفى أن يسأل إنسان نفسه : ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد ؟ ولن يستطيع إنسان أن يجيب على هذا إلا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذي جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون في إقامة تمثال له في باريس وتمثال آخر نصفي في مدرسة المعلمين .

وليم شكسبير



« ما حاجة شكسبير إلى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى إليها رفاةه المجيدة ؟ ما حاجته أن تدفن بقاياها المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل إلى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجد العظيم ! ماذا يعينك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالاً لا يبلى . »

« ملتن »

« تمثالاً لشكسبير ! ولماذا ! إن التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انجلترا كلها لخير له من كل تمثال . ليس شكسبير بحاجة إلى هرم وله مؤلفاته . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ إن الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهودهم عبثاً . فالعبقريه هى العبقريه من غير

بحاجة إليهم . ولو اجتمعت الأحجار كلها ، أفترها تكبر هذا الرجل إصبعا ؟ وأي قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء - العاصفة - زوجات وندسور المرحات - يوليوس قيصر - كربولان . وأي أثر أعظم من لير ، وأشد تجمهاً من تاجر البندقية ؟ وأبهر من روميو وجوليت ، وأبهي من ريكاردوس الثالث . وأي بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأي عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث الهائلة الضجيج ؟ وأي حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أوتللو ؟ وأي نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ كلا : لن يوازي بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح روح العبقريه العميق . روح الله يتجلى به على لسان الإنسان . ورأس فيه فكرة هو القمة ، أما أكاداس الأحجار فجهود ضائعة . وأي بناء يساوي فكرة ؟ إن بابل لدون ايزاس ، وخوفو لأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشيلية قزم إلى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس في روما لاتوازي كعب دانته ، فكيف نستطيعون وإن جهدتم أن تقيموا برجاً في رفعة هذا الاسم : شكبيره (فكتور هوجو)

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو . فأنت لاتعنى إذ تذكر شكبيره ، أقيمت له تماثيل ، أم رفعت له نصب وأهرام . وأنت لاتذكر إلى جانب اسمه ماتذكرة إلى جانب اسم نابليون من عماد فنديم أوقبر الأنفاليد . بل أنت إذ تذكر شكبيره تنسى كل مافي العالم غير ماخلف شكبيره ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامي فوق كل مراتب الشعر ، والذي يزداد سمواً كلما ازدادت فيه إمعاناً ، حتى لتنسى إلى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لأنك ترى فيه عالماً كاملاً من الأشياء والناس والآلهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن ، ولتنسى إلى جانبه الإعجاب في الحياة بأي شيء سواه . هذا وشكبيره لم يكن

ملكاً ولم يكن غازياً ولم يكن عظيماً في قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤذيه رسالته حتى لتحرقه . ومن هذا الأذى ومن هذا الاحتراق تتعطر الحياة بأريج تلك الرسالة وتزداد بهذا الأريج شعوراً كلما ازداد عطر الاحتراق والأذى ذيوماً وانتشاراً .

نعم ! لم يكن شكسبير ملكاً ولا غازياً ولا عظيماً في قومه . بل كان مؤلف روايات وكان مهرجاً . كان عمله في الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الأحيان من هذا الجمهور الذي أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديداً وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره . لكن الزمن الدائم الكر والذي يصهر تراث الماضي فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد في شكسبير إلا جوهراً يشع في المستقبل إلى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد إلا تطلعاً إليه وإعجاباً به . وهذا الزمن وجد في إلهام شكسبير الشعرى علماً وحكمة ، فبنى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر إنجلترا الأول بعد شكسبير . وهو جو مقدم شعراء فرنسا ومترجم شكسبير إلى الفرنسية .

وإذا لم يكن شكسبير عظيماً في قومه فليس في تاريخ حياته ما يقف النظر عنده إلا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد في ستراتفورد - أن - ايض في ٢٣ أبريل سنة ١٥٦٤ أى في عصر الملكة إليصابات أحد عصور إنجلترا الزاهرة ، وفي القرن السادس عشر عقب الانقلاب الدينى العظيم الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به إنجلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترماً في قومه لأنه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد اختلف الرواة في الصناعة

التي كان يزاولها جون بين أنه كان تاجراً أومزارعاً أوجزاراً . ويذهب كثيرون إلى انه كان يزاول هذه المهن جميعاً كما كان يفعل الكثيرون من اهل القرى والبلاد الصغيرة ، ولكانته من قومه انتخب في مجلس بلده القروي ونيطت به اعمال قاضي المصالحات . وفي سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه ولم يمايزال ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، في بداية تعليمه . فاضطر للاستعانة به في كدح الحياة . وجعل الفتى - على قول بعض مترجميه - « يذبح العجول لأبيه ويلقى أثناء قيامه بعمله خطاباً رائعة الأسلوب على سامعيه » . وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج في الثامنة عشرة من عمره من أنا هثواى ورزق منها في ٢٦ مايو سنة ١٥٨٢ فتاة أسماها سوزان وتوأمين غلامين في فبراير سنة ١٥٨٥ .

على أن هموم الحياة ومشاكل الأسرة لم تغير شيئاً من خلقه المضطرب الناثري . فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفرخة قربته ، كما أنه كان لا يتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار الملاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوس كبير قضاة قضائه . وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة . وفيما هو يوماً يجارى أهل قرية مجاورة في الشراب سكر حتى لم يستطع العود إلى أهله . فلما أصبح ذكر حاله وما آكل إليه أبوه الذي أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لاحترام له بين أهله برغم ما كان يشعر به في نفسه من تفوق على أقرانه أن كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه ، فهجر ستراتفورد إلى لندن وهو لا يدرى ما يستطيع أن يفعل فيها .

ودخل العاصمة العظيمة خالي الوفاض بضنيه الضنك والعوز فأسرع إلى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بغير تحول المفرجين على أبواب المسارح فإذا انقضت ساعات التمثيل نفعوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل هذه الحرفة

الوضيعة حظاً غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة . فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك بإحدى الفرق في أدوار تافهة . لكنها كانت سلمه إلى أدوار خير منها . ومع أنه لم يكن يوماً ممثلاً بارعاً ولم يصل إلى النبوغ في التمثيل إلا ما كان من نبوغه في دور طيف والد هملت فإن خشبة المسرح هي التي دفعته إلى كتابة روايات تشهد الأجيال المتعاقبة تمثيلها معجبةً مقدسةً .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحفيرة سبب هذا المجد العالمي ، فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفاً آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر في عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الإنجليزية أدت إلى إقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . وإذا كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ما أغناه عن أتباع الفرق التمثيلية في تجولها ، فقد ظل مدى هاتين السنتين مكباً على دراسة اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية ، مكباً على النظم والتأليف . وخلالها استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية . فكتب في أبريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس Venus and Adonis كما كتب في مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهداها إلى لورد سودامبتن . ويقال إن اللورد شجعه على الاستمرار في عمله وأعانه بألف جنيه دفعها له فكنه من زيارة شمال إيطاليا وإتقان لغتها ، التي كان قد بدأ يدرسها في لندن والوقوف على كثير من الأساطير الإيطالية التي استعان بها في رواياته . وفي أثناء زيارة إيطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التي نشرت بعد ذبوع اسمه والتي أهدى أكثرها إلى لورد سودامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل في تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة إلى عاصمة بلاده . وفي صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير إلى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل . ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفي على أحد خصوصاً أنها كانت

تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل . لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذبوع الصوت ما خلج عليه اسم الممثل البارع وإن كانت براعته الحققة في تواليفه ، وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب في أرباح مسرح (الجلوب) الذي كان يشتغل فيه ، فاستطاع بذلك أن يشتري في بلدة ستراتفورد دوراً وضياعاً وأن يعيش في رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله إلى حب الحياة . وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأناتته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعة والحقارة يشعر الإنسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه في أثناء مقامه بإيطاليا ومافيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كفى يكسب العيش مفر من احترافها . وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير في حضرة الملكة إليزابث وأن نال من عطفها ، وإن يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تدرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لراثائها .

وبقي شكسبير يؤلف في السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا وإياه على خير وفاق . وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته سباحث شتى حتى وضع (أومندمالوني) كتاباً سماه « محاولة لتحقيق الترتيب الذي كتبت به روايات شكسبير » .

(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written)

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده . وفي سنة ١٦١٠ أعترل المسرح وترك لندن إلى ستراتفورد حيث عاش عيشاً هادئاً مكثياً بما جمعه من مال مستمراً مع ذلك في كتابة رواياته . وبذهب بعض مؤرخيه إلى أنه كان مع ذلك يعود إلى لندن الحين بعد الحين ويشترك في تمثيل بعض

الروايات حتى احترق مسرح الجلوب في ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ في أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن . هنالك انسحب شكسبير إلى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعاً وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه . قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لاخاتمة شاعر . أفنزعوها إلى هذه الغريزة الإنجليزية التي ترى السعادة في حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الإيراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس إلى مكانته واحترامه وإلى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم أن شكسبير كان كقولشير رجلاً موزوناً وإن بك خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، حذر لتشككه مقتصد لحاجته إلى الاستقلال عن الناس ، قدير ، بعد أن يحيط بكل مامر بخاطر الإنسان ، أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير في أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه الملىء المتين . ذلك أنه لكثرة ما أنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال لمتنوع . وأنه في تصويره الشهوات قد بلغ ما بلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات إياه . وإن الاندفاع لم يحدث في سلوكه انفجاراً لأنه كان يجد في الشعر مصرفاً لاندفاعه . وإن رواياته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل مافى الحياة الإنسانية من هوس وتعس ، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الأثيرية التي أبدعها في رواياته . وأريد أن أفترض أخيراً أنه كان في جسمه مثله في سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وأن متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكالنج ورويتز ، توازى حساسية الأعصاب . وإن الماكنية الإنسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى . وإن النفس والجسم كانا مايزالان متوازنين فكان النبوغ يومئذ زهراً وثمره ، ولم يكن

. . .

قد يكون هذا التصوير الذى فرضه تين لحياة شكبير صحيحاً . لكنه لايزيد على أنه فرض فى رأى تين نفسه . على أنك إذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكبير ورواياته فقد وجدت دراسة ذلك كله دراسة لايتسع المقام هنا لأكثر من الإلمام بشيء منها إلاماً بسيطاً .

نشأ شكبير ، كما قدمنا ، فى العصر الذى عقب الانقلاب الدينى الذى قام به مارتن لوثر ، وتأثرت به إنجلترا أكثر مما تأثرت به أمة غيرها ، وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد مايزالون متأثرين قبل كل شيء بأساسه وهو حرية التفكير . وكان انهيار قيود الكتلكة هو البادى أمام الأنظار ، ولم تكن بعد قد تركزت فى النفوس قواعد المذهب الجديد تركراً ثبت الإيمان بها تثبيتاً يحول دون تحطيمها . كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الأوهام المحسنة التى تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين - لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر فى إنجلترا تسينغ الإلحاد ولانتزعج لإعلانه ولاتضطرب أمام مايرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار وإباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال فى الحياة وفى المتاع بها اعتدالاً يبنى عليها ويظيل . ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكبير ومن استباحته سرقة الصيد . وهى لايريب كانت قوية الأثر فى رواياته . فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين فى أجمل قالب وأبهاء ، مالايمحمله عصر غير عصره الذى كان مجاوراً للعصور الوسطى والذى لم يتخلص من خرافاتها وإن أباح لنفسه هدم هذه الخرافات . وكما أثر العصر فى شكبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من إيمان بالسحرة وبالجن حتى لرى كثيراً منها فى رواياته . ثم إن هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر ،

وكان القتل أمراً شائعاً فيه حتى لترى الرجل تُقَطَّعُ عنقه لغير سبب إلا أنه أنكر على الملك سلطانه الديني أو أنه أغضب رجلاً ذا سلطان بإشارة أوبكلمة . أضف إلى ذلك ذبوع عادة المبارزة وانتهائها في أحيان كثيرة إلى قتل أحد المبارزين ، وهذا الاستهتار بالحياة الإنسانية هو سر مانرى في أكثر روايات شكبير من مجازر فضيحة تنهى أغلب الأمر إلى موت أشخاص الرواية جميعاً . ثم إن التمثيل على النحو الذى نعرفه اليوم كان في ذلك العصر ما يزال في دور نشأته حتى لم يكن معروفاً في كثير من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث . ولذلك أنت ترى في شكبير مناظر مختلفة في الفصل الواحد قد لا يكون بينها أية صلة ، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الأميال . ثم إنك ترى كذلك في هذه الروايات خلطاً عجباً من أحط ماتزل إليه الجماعة في حياتها العادية التافهة ، ورفعة لاتدانيها رفعة في سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات في النفوس .

وهذه الظواهر التى تجدها سائدة في دول أوروبا كلها في ذلك العصر ، بانت أكثر وضوحاً في إنجلترا . ومرجع ذلك أن الخلق الإنجليزي بطبيعته خلق ناثر طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان كذلك في تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم . ولذلك كانت إنجلترا أسرع من غيرها إلى الأخذ بالمذهب الديني الجديد . ولذلك كانت مظاهر القسوة وماتلده من قتل وتعذيب أكثر تفشياً بين هؤلاء السكوتيين . وكان من شأن السحرة عندهم ما لاتعجب بعده لطيف هملت ولالساحرات مكبث . ثم كان من استهتار الناس بالحياة ماترى آثاره في شعر شكبير مما يجعل المتشقة والمتصوفة أشد على الحياة حرصاً من أهل هذا الزمن . فليس عجباً إذن هذا الذى نرى في شعر شكبير من مجازر وخرافات وإن خيل لبعضهم بادئ الأمر أن فيه شيئاً من العجب يدعو إلى عدم تصديقه .

وإذ كان علم شكسبير راجعاً إلى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه إلى دراسة الكتب وكانت معلوماته التي استند إليها في تأليف رواياته لا تزيد على معارف سطحية في التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فإن كثيراً من رواياته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها في الكتب التي تناولها الناس جميعاً ، وفي مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك . فرواية هملت تعتمد على أسطورة دائرية ينكرها أكثر المؤرخين . ورواية روميو وجوليت أهدوثة إيطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها في أثناء سياحاته في شمال إيطاليا أو قرأها ولم يستمها في بعض الكتب . ذلك أن هذه الأهدوثة تنتهي بأن روميو لما بلغه موت جوليت حضر إلى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، ولما كانت جوليت لم تناول السم بل تناولت محذراً فقد استيقظت وروميو ما يزال في الترع فبث كل منها لصاحبه لاجع غرامه . وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذي زج به محبها أعماق قلبه . ولم يشر شكسبير إلى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها .

هذا التحليل للمحيطات التي وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقة وضعه رواياته ، وقد يهدى إلى أسرار ماترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافة غير لائقة بعبقرية فذة كعبقرية شكسبير . لكنه مع ذلك لا يدلنا على شيء من سر عظمته ولا يهدينا إلى كثير من سر شعره . والحق أن البيئة والزمن وحدهما لا يفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر وإن بينا مراميه وكشفا عن أغراضه . فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تفتح بها الطبيعة شخصاً من الناس على حساب مواهب أخرى . وعبقرية شكسبير كانت في ملاحظته وفي خياله وفي شاعريته وكانت في ثاقب نظره إلى حد يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الإنسانية وأن يصفها وصفاً حسب الناس بادئ الأمر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة

العلمية التي لا تقبل نزاعاً ولا جدلاً .

وكانت مظاهر الطبيعة في أرق صورها وأجملها أول ما فجعاً خيال شكسبير . فانت لا تقرأ له رواية ولا مقطوعة إلا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفاً ودبماً بذلك على مبلغ تأثيرها في أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيراً يجعله يندفع إلى الإعجاب بالجمال وتقديسه إلى أقصى حدود الإعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك في شعره ، ويظهر في رعشة موسيقية قوية رقيقة في قوتها ، متجاوبة نائفة في تجاوبها ، تهز نفسك هزاً وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك مارسمه خيال شكسبير ماثلاً واضحاً . وقد بلغ من تأثير هذه الصور في نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى في شأن الحياة الإنسانية . فالرجل الغاضب كالطبيعة النائرة . وما يرتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير ما يرتب على غضب الإنسان من آثار . والطبيعة في سيرتها العادية تافهة حتى إذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل . كذلك الإنسان في سيرته العادية تافه حتى إذا ملكته الشهوة أسرف في الحب أو في البغض أو في الإيثار أو في الشنى والانتقام . والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليها ، والإنسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها . وكما تسير الغرائز الطبيعية تسير غرائز الإنسان . فكل صورة للطبيعة لها مثلها في الإنسان ، ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالاً تصويرياً في وصفه وفي إحساسه وفي شهواته وفي تفكيره . اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لا تستطيع البحار أن تمحو ما خلقت من دم على يديه . وقرأ هملت في ثورته على أمه وفي سائر هذياناته الحكيمة . بل اقرأ قيصر وقرأ في قيصر خطاب أنطوني . اقرأ ماششت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ في قالب تلك الصور .

وكما يندفع شكسبير إلى تقديس مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور

تفكيره ، فهو لا يرى في غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على أساس من روية ولا تفكير ، وإنما يقوم على الغرائز الإنسانية البسيطة هي التي توجهه وتصرفه . فالحب عنده لا يحتاج إلى تحضير ولا سعى من جانب الرجل لكسب المرأة ، بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه ، اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة ، اندفاع شعري عذب يتغنى فيه كل من المحبين بأهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كأنما كوييدون إذ رمى عن قوسه فأوحد القلب رمى مع القوس الوتر ، فأخرج هذا الوتر من أعصاب كل من المحبين أنات وآمالاً وأحلاماً لذيذة وبأساً فاجعاً لا يعرف الشعر في كل الأمم شيئاً منه مثل ما عرف على لسان شكبير . استمع إلى أنغام أوفليا في حبها هملت وتوجعها حين اليأس الذي أدى بها إلى الموت ، واسمع هذا التجاوب الحلو بين رومي وجوليت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم ، ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والنهاجها في نفس أوتللو مما لا مثيل له في أقوى ماتصل إليه موسيقى فاجنر ، وخيال شكبير يصل من ذلك في بعض الأحيان إلى حدود يعجز أقوى خيال عن تصورهما .

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك النامس جميعاً في كل تجارة الحياة . فليس الملك على خلاف النامس جميعاً لأنه ملك ، بل هو يحب أهله وأبناءه وبدلهم مادام بعيداً عن مباشرة شئون الدولة . وهو في هذه الشئون يتأثر بغرائز الإنسان وشهواته كما يتأثر أي إنسان سواه . والرجل السيئ الذي خلقه شكبير في شخص ياجو في شخص شيلوك تاجر البندقية يتفاد للغرائز الإنسانية انقياد الوحش أوتللو ، والنائم هملت ، وإن كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص إلى شخص حسب مزاجه ، وهذا الاختلاف هو الذي جعل من أبطال شكبير أشخاصاً ذوي حياة إنسانية صحيحة تشعر وإياها إذ ترى تمثيل الروايات على المسرح في حين أنك إذ ترى روايات راسين وكورني مثلاً ، وهما من أكابر كتاب فرنسا في القرن السابع عشر ، تحس المؤلف هو

الذى يتكلم وترى أفكاراً تروح وتجيء على المسرح وكل وظيفة الممثل أن يقوم بإلقاء الألفاظ التى تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسبك أنه ممثل وتنسبك أنه يقوم بدور تمثيلى . . .

ولقد أقر النقاد جميعاً لشكسبير هذه الميزة وإن رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه إسرافاً يجاوز المعقول ، ناسياً أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير ، وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد . وكما أنهم بالإسراف ظلماً فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم فى وقت من الأوقات إلى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلاً أنك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يده بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لا يأمن أن يراه الناس فيها ويصيح بأن مياه البحار لاتغسل جريمته ، وعلى الرغم من إلحاح لادى مكبث فإنه يظل يتحدث عن جريمته ولا يبدارى شيئاً من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا إليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الإنسانية تدفع بالمجرم إلى مكان جريمته وتكرهه أكثر الأحايين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث إلا واحداً من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الإنسانية

• • •

هذا بعض ماتأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحته . والآن أحشى أن أكون أطلت فى حديث لم أكن أقصد إلى الإطالة فيه . وإن يكن القول فى شكسبير قصيراً وإن طال . فلنجتزئ بما تقدم . وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكثياً من العيش بطمأنينته ونعمته ، ظل حتى سنة

١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك إلى ابنته سوزان غير تارك لزوجها إقليلا .
وفي هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، إلى أن اضطرت العالم بعد أجيال
ليقيم له من المجد ما يبقى على الأجيال حتى آخر الزمان .

obeikandi.com

برسی بیش شلی



١ - نشأته الأولى :

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، في صحو جو جميل ، كان لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلوني وقوفاً فوق رمال الشاطئ الإيطالي على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف إلى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الإيطاليين ، وكلهم محقق يبصره إلى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالمح التي فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنساني ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب في تيهاء الملح والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعاً يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه لا تستطيع حبسه . ويبلغ الملح والروع في أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغها فيلقى بملابسه على الرمل وبنفسه في الموج يسبح خلاله حتى يصل إلى زورقه « البوليفار » . ويمدق ترلوني بالمعظام تحترق وباللحم تذيبه

النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيراً كبيراً ، فما يزال منه قلب كامل لم يذوب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة بيده . وتبدأ النار بعد ذلك تحبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما بقي من رفات قيثاره الشعر الإنجليزي شلى . ويحمل ترلوفى الحفنة إلى الأرملة البائسة ماري شلى لتتولى ويتولى هو ولي هنت معها حملها إلى مقابر البروتستانت في روما كي تستقر هناك في أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها إلى جانب رفات عزيزة محبوبة هي رفات ولیم شلى ابن الشاعر البكر من زوجه ماري . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية إلى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ إلى يوم وفاته في الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وإن كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الإنجليزي عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملكان على المرء حسه ولبه ويبعثان إلى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به إنساناً أم طيراً أم حيواناً أم جحاداً أم مجرد خيال لا وجود في الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى في كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موت باعثها . وكذلك كانت فجيعة الشعر في هذا الشاب الذى خلف الحياة مذكان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكره قوة وجلالاً ، وإن كانت هذه الذكرى في غير حاجة إلى مزيد من قوة أو جلال . فلقد كُتِبَ لكل بيت من شعر برسى بيش شلى منذ ترمم هو به الخلود وكتب له الجلال .

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته . فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد في الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفى في الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد خلق به جمال الخلق في سماء الشعر إلى ما لم يرتفع إليه معاصر له ، وإلى ما لم يسبقه إليه أحد في رأى كثيرين ، وما لم يسبقه إليه غير

شكسبير في رأى آخرين . وكان إرتفاعه هذا ليس قائماً على خياله الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى ، بل كان قائماً ، فوق ذلك وقبل ذلك ، على قوة في النفس قل أن يكون لها نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت في أثناء الصبا وازدادت وضوحاً في صدر الشباب الذى كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته . وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة في إيمان الرجل برأيه وصراحته فيه وإعلانه إياه وسلوكه سبيل الحياة على موجهه ، وإن أدى لذلك ثمناً فاحشاً أن عدده الناس مجنوناً وأن نفرت منه الجمعية الإنجليزية أشد النفور حتى اضطرت لهجرها منذ أول شبابه ، وليعيش السنوات الخمس الأخيرة من حياته تحت سماء إيطاليا الدائمة الصفو والابتسام ، والتي تظل من صور الجبال وبدائع الفن ما يزيد في إلهام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الإيمان اللذان أعتبراً جنوناً هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر إلهامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الأبيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعاً الحائز لذلك غاية الإعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم إياه . لذلك كان طبيعياً أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعياً أن يفر من منظر النار تحرق مئوى هذه الفضائل وتذره رماداً . وكثيرون ممن عرفوا شلى كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينان عن هذه الفضائل فيه ، وإن كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله . فقد كانت في نظرتة وفي تقاطيع وجهه وفي جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة . وكان يضوع منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على النضال والقوة فيه . وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التي شدت بأجمل الأنغام وتغنت بأحلى الأهازيج . كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله في الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته في

إعلان إيمانه حتى حكموا عليه بالجنون . فقد ولد في أسرة نبيلة جمعت إلى النبل المال . وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بما لها ونبلها . كان جده السير بيش شلى باروناً وكان غنياً وكان لا يفتأ يدأب لزيادة ثروته . وكان أبوه تيموذي شلى قاضياً وعضواً في البرلمان ، وكان قصرهم بفيلد بليس على مقربة من هورشم إحدى أعمال سسكس محاطاً بمحاذق وأحراش تدعو إلى المتاع بها والطمأنينة لها ، وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه إيراداً سنوياً ستة آلاف جنيه في ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألف تعادها في زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف الهدوء إليه ميلاً . لو أن صاحبها أوتي من هبة الشعر ما أوتيته شلى لكان طبيعياً أن يسلك الطريق التي سلكها بيرون من الإنجليز وعمر بن أبي ربيعة من العرب . لكن شلى ضرب بالمال والجاه والدعة عرض الأفق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعاً ولم يقتض من وصية جده إلا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وانطلق في الحياة هائماً يجلى بهاء الفضيلة ويؤدي رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، في أنغام قلمية من موسيقى السماء . ويؤديها ذاهلاً عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجهاً بكله إلى هذا الوجود المحيط به ، مفتياً نفسه فيه كفى بفنى الوجود كله في نفسه فترده إلى العالم وحياً سماوياً يختلط بالفوس جميعاً ويتنقل على الأجيال إلى ما شاء الخلد أن تكون للإنسانية أجيال تتعاقب .

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ في حياته وفي تفكيره وفي شعره . جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوينية وما اتصل بذلك من حسن تحمده عليه كل فتاة في مثل سن الطفولة التي كان فيها يوم ذهب به أبواه إلى مدرسة (سيون هوس) في برنتفورد ،

بالغاً في رفته وظرفه وحلو طبعه . ونبأت هذه الصفات إلى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتنتزه عنها وترى في عدم النظام وسوء الإتساق ما يؤذيها ويشيرها ، على أن هذه الصفات جعلت منه في المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم وطههم ، مما بعث إلى نفسه غضاظة ومضضاً ، فلما انتقل به أهله إلى مدرسة « ايتون » حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها إلا بغضاً ولعاملة زملائه التلاميذ فيها إلا مقتاً . فقد كان وما يزال من نظام التربية في هذه المدرسة أن يخدم الصفار فيها من هم أكبر منهم سناً وأقدم في المدرسة عهداً . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والإهانة من كبيره . كان يسمح له أخذيته ويأتمر بأمره في كل حاجة يحلوه أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على إهانة زميل له إياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان . ولذلك كانوا جميعاً يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبي شلى فلم يدعن له . لم يرض أن يكون خادماً ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . ليكن هو نظام المدرسة الذى تابعته وتتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الإنسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادماً ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم في ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعترضهم ولجأ إلى وحدة لم تزدهم له إلا احتقاراً ، ولم تنجهم من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكهم . لكن رفته لم تؤدبه إلى ضعف إباته وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الأقوى ويأتمر بأمره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقاراً باحتقار . وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وإن يك عدواناً متفقاً مع هذه الأنوثة في تكوينه . عدوان عض بالأسنان وهبش بالأظافر

بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحياناً . وهو لذلك لم يكن يبايهم العدوان ولا يتحكك بهم ، بل كان يتركهم في ألعابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتباً عمية إليه مما وضع كتاب الثورة في فرنسا وأنصارهم في إنجلترا وما وضع جماعة اليونان الأقدمين ، ثم ينطلق بها بين الأحراش والغياض حتى يصل إلى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه في المتاع بما في كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله ويتأمله إياها والتفكير فيها . ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته كتاب وليم جودوين : (العدل السياسي) . وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثيراً بمبادئ الثورة الفرنسية ودعوتها إلى الحرية المطلقة في التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة في ذلك إلى إنكار الدين نفسه . على أن جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الإصلاح الذي يريد إدخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية . فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الإصلاح ، وكان يفر أشد التفور ويطعن مر الطعن على الإلتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة . ودفعه تفكيره الحر هذا إلى إنكار أكثر القواعد التي تقوم عليها جمعية عصره . دفعه إلى إنكار الملك الخاص إلا بمقدار حاجة الشخص له والظن لذلك على الثروات الواسعة . ودفعه إلى إنكار الزواج على أنه نظام ، لأنه مناط فكرة الملك الخاص . وانتهى من تفكيره إلى وجوب إقامة الجمعية على أساس من العقل وحده ، وإلى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ، وأضحت العقوبة وصمة في جبين الإنسانية . ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب إلغاء عقوبة الإعدام ، بل كان يطلب إلغاء العقوبات جميعاً .

في هذه المبادئ التي وضعها جودوين كثير سبقه إليه روسو وتأثر به أهل فرنسا

ورجال الثورة فيها . على أن المبالغة هي التي أدت بهم لينكروا حتى الدين الطبيعي الذي دعا روسوا إليه وليجعلوا الإلحاد وسيلتهم إلى حرية الفكر ، ولعلك إن التست تفسيراً لهذا وجدته في تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثاً كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الإضمحلال . على أن واحداً من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالإلحاد لم يلبث أن عاد إلى نوع من الإيمان فيه جمال وله جلال ، ودعا إليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منها . ولقد تأثر شلي في الأيام الأولى من شبابه إلى أبعد مدى بكتاب جدوين ورأى في نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية ما لا يتفق مع حكم العقل ، واقنع بأن مرجع هذا كله إلى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوباً من القداسة يحول دون التفكير في معالجته أو إدخال أي إصلاح عليه .

أليس نظام الزواج قد طبع بميمس الدين ؟ أليست عروش الملوك قد أحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شئون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك في قوالب الدين التي يقولون إنها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ لذلك مال شلي إلى ناحية الإنكار على أنه الوسيلة لكل إصلاح ما دام الإنكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية في التفكير والشعور والإلهام والإيمان .

إلى جانب هاته المطالعات التي كانت تثير سخرية أبناء أيتون من شلي كانت طبيعته الحساسة الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراء الطبيعة تدفعه إلى دراسات أخرى جعلت زملاءه في المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلي) . فقد كان يعنى بالسكر والسيمايا ويعتقد في الجن والأطيايف ويرى في الهواء والماء شياطين وآله كانت تحيا في خياله وتصيح ذات كيان ووجود ، لكثرة مطالعته في أساطير اليونان وتاريخهم . واتجه عقله متأثراً بهذه الناحية من نواحي طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع

بأن يكون لديه معمل كيميائي صغير يرضى طلعتة العلمية والسحرية . على أنه كان كلما ازدادت في هذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له أحد قولاً ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة في الحياة وفي الحب وفي الإصلاح الذي أولع هو به بعد الذي أفاد من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لإقناعهم برأيه مثار احتكاك بينهم وبينه وسبباً للكمه ولطمه .

وزاده تهمدهم إيماناً بضرورة إصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم في هذا برغم أنه لم يفكر في كراهيتهم بسبب ما يصل إليه من أذاهم وإن كان دائم التفكير في إصلاحهم ، برأ بالإنسانية وعظفاً عليها . فلما لم يجد منهم سمياً جعل من أخواته البنات ومن ابنة عمه هاريت جروف تلميذاته في إجازاته المدرسية يلقي عليهن تعاليمه ويطلعهن برسالاته ، ولقدكن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وألسن قياداً ، وكانت إليزابث كبرى أخواته أشدهن إيماناً به وتقديساً له وإعجاباً بكل ما يقوله ، هو يرى الشرفى الملوك والأغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة . إذاً فالخير عند هؤلاء والشرفى أولئك . وهو يرى الزواج نظاماً تعساً ، وإنما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج إذاً نظام تعس ، وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التي يقصها أمام الفتاتين من باهر الألوان ما يسحرهما عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلها تؤمنان به من غير بحث فيه . أليستا يافعتين تتقدمان إلى الصبا ويبدأ في دمها مسرى رغبته ؟ والحب عنوان هذه الرغبات وطلعتها . وشلى شاب جميل حلو الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا ما لها ويظير على أجنحة الحب مطارهما . ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى في حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديدياً لا تميل إليه نفس الأنتى الحريصة على أن تجمد من الجمعية كل حماية وعناية ، فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين

شلى يكفل من بعد أعتداله ويدفعه ليعدل عن أوام الإصلاح فى نظام الأسرة المقدس على الزمان ، وإن هو لم يعدل من بعد فهى ما تزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره ، يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترنمه ، وأن ترى فى نظراته وابساماته لها ما يسليها عن نظريات يجمل بها أن تعتقها لتزيده بها تعلقاً ولها ابساماً . وكانت إليزابث تشعر فى بعض الأحيان أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمعت من عطفه ، يكفيها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدتين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام ، ثم يعودان متخاصرين يسرى إلى جسم كل منها دفء جسم صاحبه .

وكانت أيام إجازته المدرسية تنقضى فى هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعو إلى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين ، والفتاتان توثمان به وتبادلانه حباً خالصاً : حب أخت ترى فى أخيها نبوغاً تفرح به ويزيدها حباً له ، وحب فتاة تصبو إلى ما يدفع الحب إليه كل فتاة وقتى من تحلبد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تحلبداً ترضاه الجماعة وترعاه . فإذا انقضت الإجازة عاد إلى ابتون مترفعاً عن الساخرين منه مكباً على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية منتظراً يوماً يعود فيه إلى تلميذتيه يحدهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث إليهما عما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة .

وأم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى أكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه بأكسفورد . وفيها تعرف إلى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفها لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا . وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الأنابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها معملاً عجيباً . لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك

وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة في كتاب جودوين . وكان من دواعي عجب هوج أن يكون هؤلاء المشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه إلى ناحية التأملات الروحية . لكن عجبه هذا لم يمنع إعجاب به بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الأحراش فينطلق شلى مرحاً يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحماً الماء إذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه إلى علمه وإلى تأملاته ، ويعود كذلك إلى كتابة القصص والنشرات . فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصة زاستروزي . وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنواناً لها (القديسة أرفنى) يروى فيها شيئاً من تفكيراته . ثم هذا هو كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة إلى الإلحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلي ويعمل لنشرها في كل مكان لينتهى بسبب ذلك إلى طرده من أكسفورد وإلى هجرة بيت أبيه وإلى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة .

وكان في وسعه أن يتوقع ما ترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته . فقد بعث الناشر ستكديل إلى مستر تمودى شلى خطاباً يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة أرفنى وأن فيها من الآراء ما لا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تمودى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئاً من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور ابنه في إجازة عيد الميلاد ، فلما حضر ألقى الجرحوله متجهماً وألقى الناس من أهل هذه البلاد يتهايمسون بالإلحاد ويزورون عنه وينأون بجانهم ، وتحدث إليه أبوه ساعياً أن يقنعه من طريق المناقشة فإذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهاناً ، وإذا الأب يقنع آخر الأمر بأن يقول له في غضب : إني أو من لأنى أو من . على أن غضب مستر تمودى وتهايمس الناس وانصرفهم عن شلى لم يؤثر في نفسه ولا دعاه إلى التفكير في أمرهم . لكنها أثر في

نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت . فهو لم يكن يشك في عمق ما بينها من حب عمقاً وصل إلى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بها عما تفاهمت نظراتها عليه من تقاسم الحياة والإشتراك في ورد ما فيها من جمال وسعادة . لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث إلى أخته إليزابث ، التي ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها ، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذي جنت من قبل به وجزئ بها . وعبثاً ذهب شلى وقابل هاريت وحاول إقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصاً على المتاع بنعيم الجمعية من ملابس وحلى ورقص ، منها على الأفكار التي يسبح هوف في سماواتها متوهماً أنه يسعد العالم بإقناعه بها . وألفاها أشد حرصاً على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشباب لا تدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكيةً نائراً إلى صديقه هوج خطاباً يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكك بعد أن كانت هي من قبل متأثرة بتعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وإن لم يكن يفر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلاً بل واجباً ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربتة ، لأن التعصب هو الذي يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التي تحطم أقدس الصلوات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسمىها ، وأن تستل من بين الجوانح حباً قائماً على التفاهم وحسن إدراك الحياة والتوجه إلى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى في الحب عاطفة قديمة تسمو بالنفس إلى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتخلق بها في أجواء أثرية تشهد منها

بدائع هذا الخلق جميعاً متجلباً فيما يقع عليه الحس من صور جماله . والحق أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره . هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفعية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة ، بل كان يريد امتزاجاً روحياً لاستشفاف ما حولنا من جمال هو مصدر الحياة ، وشركة في حب هذا الجمال في متباين صورته ومختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع إنسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به في قصيدته (أبيسيشديون) حيث يقول ما ترجمته : « لم أتصل قط يوماً بهذه الطائفة الكبيرة التي يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقة وأن يلتقي بالباقيين ، وإن يك لهم ما لهم من جمال وحكمة ، في جمود النسيان . . . فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب في أنك كلما شاطرتها أخذت منها وأنقصتها ، على حين هو يشترك مع الفهم الذي يزداد بريقاً كلما ازدادت الحقائق التي ينبعث نظره إليها . وهو كالخيال يستمد نوره من الأرض والسماء ومن أعماق أهواء الإنسان ومن ألف مرآة وألف ضلع ، ثم يملأ الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . وياضيق قلب ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهى غايتها ، وذهن يقف خلقه عند شيء واحد ، وصورة واحدة ، يبني لذلك بها قبر خلدته . »

إذاً فالدين والعقيدة الإجتماعية والنظام الذى يمحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد ، يبني لنا قبر خلدنا ، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من إلهام . فعلى الذين أوتوا ما أوتى شلى من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وأن يصلوها من حربهم ناراً حامية .

وعاد شلى إلى أكسفورد كتيب النفس حزين الفؤاد نائر القلب والعقل معترماً أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق للتسامح والحب والمغفرة والجمال .

وكان أول ما صنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة إلى الإلحاد) موقماً إياها باسم غير اسمه وموزعاً لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله . فقد بعث بها إلى رجال الدين وإلى المعلمين وإلى المشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها في مكتبة أكسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول ما احتج أحد رجال الدين عليها . وقد افتتح هذه الرسالة بقوله « الحس أساس كل معرفة » ، وسار فيها بلهجة ملتبهة يطعن كل قيود الدين ويحطمها . وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها ، فسألته فأبى أن يجب فقررت فصله . واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من إدارة أكسفورد ، فتقرر فصله هو أيضاً . وترك الصديقان الجامعة عائدتين إلى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريق الزمن ، مكتفين فيها بغرفة اعتبرها شلى مأواها الأخير .

ولما علم مستر تمودى شلى بفصل ابنه من أكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظاً وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمده بمعونة أو مدد إلا إذا هو رجع إلى فيلدبليس وتلقى فيها الدروس على من يختارهم هو له من الأساتذة . فرد شلى على أبيه يرفض في أدب شروطه . ولم يقنع الأب بهذا الرفض فذهب إلى لندن وقابل برسى وصاحبه هوج وحاول إقناعها بالحجة ليعدل شلى عما كتب في رسالته عن الإلحاد . ومع ما سلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقي من ابنه صخرة لا تترجح وألني فيه إباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليها ، فتركه عائداً إلى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهماً . ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن إلى أبيه فينتهي إلى الإذعان . أو لعله كان أشد حرصاً على سمعته منه على فتاه . وعلى أى الحالين فقد ظل شلى مصراً على رأيه مرتفعاً عن أن ينزل عنه مستخفاً بما يتهدده من ضيق ذات اليد ، فما كان المال ليوازي عنده يوماً شيئاً إذا هو تعارض مع إيمانه برأيه . وبقي معه هوج أياماً في لندن ثم غادرها إطاعة لأبيه الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه . وأقام شلى من بعده في العاصمة الإنجليزية وحيداً ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد

لنضال الجمعية التي أضطرته إلى عزلة ، مؤمناً بأنه سينتهى إلى الظفر بها والتغلب عليها .

٢ - هاريت وستروك :

أقام شلى في العاصمة الإنجليزية وهو أقل تألماً لاختلافه مع أبيه ولغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدراؤها حبه وانفصالها عنه . لذلك كان أكثر تفكيراً في هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته . وفيه عسى يفكر من شئون العيش وقد كان قائماً بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه . فأما هاته التي عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادئ السامية جميعاً ، فهي اللغز الذي يوجب العناية ، وهي الداء الذي يتطلب للبره منه علاجاً حاسماً .

وأكب بقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل إليه يوماً أنه عثر في حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها . هو لم يكن يجب من هاريت جسمها ولا كان يقف إعجابه عند جمالها . بل لئن أعجب بحسنها على أنه بعض صور الجمال الذي زينته به الطبيعة الوجود ، فإنما كان حبه منصباً كله على سمو ذهنها لإدراك نظرياته ونظريات جدوين في الحياة ونظامها والتسامح وضرورته والحربة وتقديسها والجمال وعبادته . وهذا هو ذهنها قد فتر عن إدراك ذلك كله وهبط إلى مستوى الأذهان العامة وأصبح شيئاً آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فلماذا بقي بعد ذلك منها جديراً بالحب أو دافعاً للتثبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق إنسان في فتاة جمالها تراه عاشقاً الدود الذي يحول إليه جسمها بعد انتقالها إلى قبرها ! وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع إلى مراقى ذروة التفكير

والذى اتصل من قبل بذهن شلى وروحه ، وقد اندست إلى قبره ديدان الأوهام والأباطيل . فليس شلى هذه العاقبة إذاً ، وليسلكها في سلك البائسات الحقيقات بعطفه ورحمته . . . لكن . . ! لكن هذه الحججة القاطعة التى أرضت عقل شلى لم تطفى في قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراماً . ولعل مرجع السبب في هذا إلى غدر هاريت لما كان يرجو في صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة للمندسة إلى نفس الجماعة أكثر مما يرجع إلى شيء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب . ولذلك لم يظل في قلبه لاجع المهم ولا ظلت جذوته مسترة إلا ريثما وجد في هاريت أخرى ، لا تقل عن الأولى جمالاً ولا ذكاء ، ذلك الإستعداد للسموم في سماوات الجبال والإلحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين في الدعوة إليه .

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن في مدرسة للبنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تناول من أختها الكبرى إليزابث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشيء عن إهمال أبيه إياه ، وكان برسى يذهب إلى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لأنه كان يأبى أن يتأثر بما تبعث به إليه أخته . وما لبث أن تعرف إلى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر في إقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه . وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامه وأغردهن صوتاً ، وكان جلالها يضىء مزداناً بشعرها الذهبى وخطودها المتوردة وشبابها الضاحك إلى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها في السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلة النظرة يفيض المرح من وجودها كنه ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروباً ضحوكاً . وقد أتقتت القراءة والإلقاء فزادت عذوبة صوتها وتعريده حياة وروحاً . وعنى أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عم

كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل في الفنادق . لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال بينات النبلاء زميلاتها في المدرسة ، وكانت أشد بأخوات شلى اتصالاً . فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت إليه وأظهرت أساها لإلحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل إيمانها وإيمان الجمعية كلها . لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو إليه بهاء وجالاً لا شيء مثلها أو يقاربهما في تعاليم الكنيسة ورجال الدين . فالحرية الأثرية الأجنحة الطائرة في فضاء طلق تسيح منه في جبال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجبال الذي يحمل إليها شذى الحب وعبقة فيملاً بها قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج أو من تملك أو توارث ، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف ، هذه صورة جذابة ليس لها فيها حفظت من تعاليم الدين نظير ، إلا أن يكون ذلك في العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التي نحسها ونلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننم بها في الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فالهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير في الموت ، وما لها وإكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة إلى ما بعدها ترى ما يخيّلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الإجهاد ما دام رسول الجبال والحب شلى يضع له الجنة في يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة في جمال صورته ، وفي نبلة وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحب الإنسانية كلها حباً جماً ؟ أو ليس خيراً لها أن ترفعها هذه الأبدى الرقيقة الحنون ، أبدى شلى ، إلى جنات الحب ونعيمه ، من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك إلى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة في لحظة أكثر من تلك التي ترى فيها شلى في

المدرسة أو التي تذهب له فيها بيته في شارع بولونيا تحمل إليه ما تعطياها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها في حين كانت هاريت تذهب كل يوم إلى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها .

وكان لهاريت أخت متقدمة في السن إلى ما فوق الثلاثين اسمها إليزا . تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها إلى مصاف النبلاء . لذلك لم يسؤه يوماً مرضت فيه هاريت أن دعت إليزا بشلى إلى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها إلى ما بعد منتصف الليل . وكان من أثر جلوسه إليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى إلى صحتها وإلى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هيأماً وتدهلاً . لكن شلى لم يكن ينظر إليها نظرتها إليه . بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن إلى الاقتناع بأرائه ومبادئه مما يعزبه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التي دفنت في قبر الأباطيل ونخر فيها سوس الأوهام . كان يرى فيها ضياءً جديداً غير هذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الإلحاد فى حين هو الإيمان بالعدل والحق والجمال . وإذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى إيمانها الذى أوحاه هو إليها . وما أجمله إيماناً يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة .

واطمأنت نفس شلى إلى تلميذته وإلى الحياة وعاوده الرجاء فى صلاح الإنسانية كلها ، وإن كانت هذه الصلة قد أدت إلى فصلها من المدرسة كما فصل هو من أكسفورد من قبل . وزادته طمأنينته هذه شوقاً إلى أخته إليزابث أشد من عرف من تلاميذه إيماناً به وحباً له . وفيما كان يفكر فى الطريقة التى يعود بها إلى فيند بليس مر

خاله الكبتن بلفولد بلندن وتقابل وإياه . وكان الكبتن رجلاً كثير التجوال في مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متسامحاً لا يطبق أن يفهم كيف يؤدي اختلاف أب وابنه في الرأي إلى تعصب الأب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعاً . فأخذ شلى معه إلى داره بككفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل للابن عيشه . وكانت في ككفلد مربية هي مس هتشر رومانية الجمال تتخطى في طمأنينة إلى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادئ الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه «هذا المرض» وقبلت هي أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الأمر بسحر جماله وعضوية روحه أكثر من إقتناعها بآرائه مبادئه . واستعان الكبتن بلفولد الدوق نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه . فلم يحتاج المستر تمودى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود يرعى إلى أهله وكى يرى أخته إليزابث . وارتضى الأب أن يرتب لإبنه مائتى جنيه سنوياً لا يقيداً شرط ولا يؤثر ترتيبها في حرية شلى بأية صورة من الصور .

ولقد فاضت السعادة بشلى في أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شيء إلا إطفاء شوقه لإليزابث . لكنه لم يلبث إلا قليلاً بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هي إليزابث التى يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بإيمانه وتدين بمبادئه . وكانت عونته على هاريت جرروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت إلى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هي الأخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به وبمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجاً صالحاً ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعاً ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الأمومة في أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات في أقرب ما يماورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن ؟ وهل

ينسين ساعة بمجنن هذا كل ما يسمو إليه الحب من معان وما يطمئن المحب إليه راضياً من تصحيات في سبيل تحقيق هذه المعاني ؟ ألا تمسأ لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى .

وعبثاً حاول شلى أن يعيد إليزابيث إلى حظيرته العليا وأن يردها كى تفسر النفس على صور من السمولا يطبقها إلا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار للرقى بالإنسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال ، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضى ثمنه إذعان بنينا للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها . لقد ذاق هذا المتاع المادى القريب إلى متناول اليد ، وما هى ذى ترى فى الأمومة صوراً أخرى من المتاع لاسبيل لها إلى نيلها إلا بالاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوامره وترهاته . أفتأتى بجانبها عن هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها وتنظر إليها العيون شرراً وليسى القانون متابعتها عواطف قلبها عهراً ؟ كلا ! ولئن كان شلى أخاً صادق الأخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأخته عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل ما فى مادة الحياة من متاع وتودى به للأمومة واجبها .

ويش شلى من أخته كما يش من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كى يذهب إليه فى يورك ، وأخرى من فتانى وستيروك وثالثة من خاله الكبتن بلفولد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعاً ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه إلى بلاد الغال على شاطئ البحر ، آملاً أن يجد من مجال طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث إلى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته . وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولاً يدعو إلى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفذ أكثر وقته يكتبها إلى هاربت

وستبروك وإلى مس هتشر وإلى هوج وإلى غير هؤلاء ممن بأنس فيهم ميلاً إلى الرقي نحو الكمال . ولم يطل به المقام في عزلة الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباه يريد أن يعود بها إلى المدرسة التي فصلت منها ويطلب إليها أن تتحركى تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعترمت أن تتحركى لا تلبى ما يريدونها عليه . فرد شلى عليها يسكن من روعها وبعث إلى أبيها يلومه لما يحاول من إكراه الفتاة عليه . وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضياً من قبل عنه مفضياً عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته ثم إذا به كغيره من أبناء النبلاء يفرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم يتأون عنهن ازدراء لمنتهن . ولم تطاوع هاريت أباه على أن يكون ذلك شأن شلى ، فكتبت إليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الإنتحار ، ولكنها تريد الفرار معه . فترك الغال حين تسلم رسالتها وذهب إلى لندن كى يحاول إقناع أبيها بأن لا حق له في إكراه ابنته على غير ما تريد ، آملاً أن تبقى الفتاة في رعاية مسر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى أختار هو لها سبيلها . فلما رآته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كى يفرا معاً لينا حيث يشاء ، وحاول هو أن يردّها عن رأيها فكان جوابها : لكنى . أحبك . لا صبر لى على بعدك .

هنا وجم شلى . وزاده وجوماً اللهجة الصافية القوية الملتبهة التى اعترفت الفتاة فيها بحبا إياه . لكنه هو لم يجب منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وإنما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! على أنه اهترمع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته . إنها تحبه وتريد الفرار منه مزدريه أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه في نضالها لهدايتها وإصلاحها . فلم يستطع في تداول نفسه بين اهترازها إعجاباً بهذا الإعتراف ، وشعرها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، إلا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدّها

بصدق إخلاصه لها وأنه سيكون إلى جوارها عند أول نداء يصله منها . وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به أيمان أقسمها أبوها بأن شلى ضلل بها وأنه لا يجبها ، وليعود إلى لونها تورده وإلى وجودها شبابها وفرحه .

وكتب شلى يقص على هوج ما حدث . فأجابه صديقه ناصحاً إياه ألا يفر بالفتاة إلا أن يتزوجها . وإذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاماً تعساً ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه . فلن نصيه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى . أما هي فستكون إن لم تتوجه منظوراً إليها بعين الإزدراء حيث سارت . مغضوباً عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بأنم قد يعنى في نفسها الطفلة على حبها إياه . فإذا كان شلى لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلماً إياها للتعس والشقاء وتكون التعاليم التي يريد بها سعادة الإنسانية مؤدية بالفتاة إلى البؤس والسقوط لغير ذنب إلا أنها أحبته ؟ . . .

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد في وعده الفتاة أن يكون إلى جانبها لأول ما تدعوه إليها . لكن الفتاة لم تمهله في تردده بل بعثت إليه بعد أسبوع من تركه إياها تدعوه إليها . ولم تظل في نفسه المعركة بين المبدأ والواجب . فذهب إليها مذعناً للواجب معتزماً أن يفر بها وأن يتزوجها تاركاً بين يدي القدر ما يؤول إليه أمرها من بعد .

وغادرا عاصمة إنجلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضيا في سياحتها أياماً شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى إلى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصفوره معه طائراً عن العش الأبوى حباً له وغراماً به ، قلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسومان فيه إلى التفكير في المعاني التي يريد هو أن يحيط الحب بها ، بل أصبح حديث غرامها هي وتدلها ، وأصبح حديثاً دلالة الألفاظ

فيه دون دلالة النظرات والبسات والقبلات . ها هي ذى تستيقظ إلى جانبه فإذا
 عيونها إليه معسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى ، وإذا أذرعها تطوق عنقه
 وأصابعها تعبت بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعداً إلى قلبها كي
 يبعث بها إلى فمها فتطمعها على فمه قبله فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها .
 وها هي ذى النهار كله تشدو إليه بأغاريد حبها وهواها ، ثم ها هي ذى الليل تطوق
 ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو إلى أذنه ترداها لأسمه حين أحلامها بهائثا ونعيمها .
 لذلك لم يكادا يصلان إلى ادنبرة ويختاران فيها مسكناً حتى أتم زواجه منها وملكه
 إياها . وكذلك قضياً أياماً نسي فيها شلى نفسه ورسائله واستسلم فيها بكله إلى المتاع
 بحب هاريت حباً بعث إلى كل ما يحيط بها من بحر وشجر وجبل وزهر شذى
 جعلها تضوع بريح الحب هي الأخرى وترداد على جمالها جبالاً وسحراً .

ثم آن لشلى أن يعود إلى تأملاته وتفكيره ، فإذا هاريت في شغل عنها بحبها له
 وعبادتها إياه . فإن هي شاركت فيها كانت صدى له يرد إليه تأملاته هو في صوت
 عذب وحديث حلو . لذلك ود شلى ، مع اطمئنانه لعزلتها وسعادته بحبها ، لو أن
 صديقه هوج كان معها . وكأنما كانت الأقدار في هذا طوع رجائه . فلم تك
 إلا أسابيع بعد عودته إلى التأمل والتفكير حتى جاء هوج في إجازة له يقضيها عند
 صديقه . وقد بهرته روعة جمال هاريت إلى حد كاد معه يمل حديث شلى وبحوثه
 ونظرياته . وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للترهة وتركه هو
 لقراءته وتأملاته . فلما آن هوج أن يعود إلى يورك اقترح عليها أن يذهبوا إياه لها .
 وسافر ثلاثهم فلم يجد شلى في يورك جمالاً يغذى روحه الدائمة الظمأ للجمال . وزاده
 هما أن لم يصله من أبيه المال الذى أتفق على أن يبعث له به فاسفر إلى ككفلد ليرى
 خاله الكبتن بلفولد وترك زوجته في حياية صديقه إلى ان يبعث إليها باختها . ولم يملك
 هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها . فصدمته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه

يوماً واحداً ، أن حضرت أختها في اليوم الثاني فحالت بينها . ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافراً ومعه زوجته وأختها اللتان رأتا في صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه . وعاد هوج من مكتب المحامي الذي يشتغل في رعايته فألقى المنزل خلاء وإن لم يغيره بالسفر أحد . واختار شلى الذهاب إلى منطقة البحيرات إذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج . وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع في مثل عظمتها ويرجو أن يكون من شعراء منطقتها . ولما كان ذوق نورفلك يقيم كذلك في هذه المنطقة ، وعلم بمجيء شلى إليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته إلى قصره . وهناك عرف صديقاً لسوذى ذهب به إلى بيت الشاعر الذي كان يجلس من نفس شلى أسمى مكانة وأرفعها . لكن شلى لم يلبث أن تولته الدهشة حين ألقى زوجة سوذى أبعد ما تكون عن إلهام الشعر وإن كانت ربة دار مضرراً للمثل . ولما دار بينه وبين سوذى الحديث ، بهت مما سمع . فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول إنه متدين وإنه مسيحي ! وهو يحب المال ويطمع في كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجباً ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر في مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك إنجلترا بأنه خير ملك جلس على عرش . وعلم أن سوذى يقصد من هذا إلى أن يجلس عليه الملك ألقابه . إذاً فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة إلا ما يطفئ ظمأه لنعيم المادة . إذاً هو لا يستحق احتراماً ولا تقديراً . ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أياً تكون باحترام صاحبها إذا نزل بأخلاقه وبعمله في الحياة إلى المستوى الوضع الذي لا يطمع الناس منه إلا في كاذب الجاه وفي اكتناز المال .

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته في رأيه وإن لم ير في ثورته بالدين إلا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكي جميعاً ثم يعودون إلى نوع من

الإيمان له روعته وجلاله . بل لقد كان شديد الإقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى ، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لا تطبق الإلحاد وما يصور الإلحاد من عدم ، ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق ، ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الإيمان بالجمال ، ومن يدري أى مصير كان قد أعده القدر لإيمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العرح حتى رأى من عبث الأقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى ! !

وكان من حظ شلى ألا يفجعه القدر حتى يسرع إلى أن يعوض عليه فجيعة . فكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك ، كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من إيمانه بسوذى . فقد عرف إذ ذاك أن وليم جودوين حى يرزق وأنه يقيم بلندن وأنه يستطيع أن يراه . لذلك سارع فكتب إلى مؤلف (العدل السياسى) رسالة كلها الإعجاب به والرجاء فى الإستماع له على أن شلى كان يومئذ فى شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع إلى لندن للحاق بأستاذه الروحى العظيم ، ذلك أن الكاثوليك من أهل أرنلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سبها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية . فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للإنسان ، وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم ولينادى بالمساواة بين الناس جميعاً لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلاً على غيره ، وليشن الغارة على رجال الدين وما يدعون إليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردها رجال الدين إليهم بدعوة الناس إلى تقديس عروشهم والإذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم ، ولهذا الغاية وضع نداء مطولاً دعا فيه إلى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، وإلى هذه الأفكار التى خلفتها الثورة الفرنسية ورائها . لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر الناس من أهل ذلك العصر ، لأنها

بعد ما قامت فداء للحرية والمساواة وبعد ما قدمت من تضحيات وبعد ما قضت عليه من رءوس أطاحتها وثروات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاماً لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسه إمبراطوراً على عرش الجمهورية . وسر إخفاقها في نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه أنها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فهدت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم الصعداء لإنقضاء عهدها . ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر الإنسان بالإنسان وتفاهم الأخ مع أخيه أساساً لها ، لحققت على الأرض كل غاياتها وإن احتاجت إلى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها . ولهذا دعا شلى إلى مساواة الكاثوليك بسائر الإنجليز في الحقوق والتكاليف ، طالباً إلى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم في هذا من غير أن يلجأوا إلى عنف أو دماء . واتخذ مقرأً لدعوته في دبلن بيتاً أقام فيه مع هاريت وإليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتب لهذه المبادئ السامية . وقد خيل إلى بعض أصدقائه أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن أهل أرنلدا سيلتفون حوله . لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفي زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعاية وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لها ولا يعابى بها . والحق أن شلى كان مخطئاً كالذين رأوا معه أن إخفاق مبادئ الثورة الفرنسية يرجع إلى التجانها للعنف والقسوة . فالثورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها في العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادئ التى أعلن أهلها أنهم يريدون تحقيقها . بل هى بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحتة . وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم إذا تحققت المبادئ التى أعلنوها . فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين أُلقت إليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون في الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادئ التى كان الناس من قبل يقرهونها فتلذذهم قراءتها من

غير أن يؤمنوا بها ، وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس إيماناً بفائدة المبادئ التي أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف في سبيلها ، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة في أيديهم وتخلصاً ممن قد ينازعهم إياها . فهم إذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء ، لكنهم وحدهم هم الذين يوصلون هذه المبادئ السامية إلى ذهن الجماهير ، لأن الجماهير لا تفهم إلا اللغة الدموية الوضيعة : لغة القسوة والإرهاب والبطش ، ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا إلى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به وفتف له ولتابعه ولولع وإياه في الدم ولا يتهج لهذا المنظر الذي يحرك فيه حيوانيته الأولى ثم لبث قليل أو كثير من هذه المبادئ في ذاكرته يستظهرها بعد رجوعه إلى وعيه . أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الإنسان للإنسان وتسامح الإنسان مع الإنسان ، فلا مطمع له في أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته .

وعبر شلى وصاحبه البحر من جديد إلى بلاد الغال يائساً من أولئك الكاثوليك الذين لا يفهمون ، وظل يتنقل في مختلف بلاد الشواطئ البحرية زمناً لم يهتد فيه إلى مسكن يسر به ، فغادرها متجولاً في نواح مختلفة حتى أهدى في ثنوث إلى منزل أعجبه فأقام به : أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدا عنده جمالاً عزلتها وقلة اختلاف الناس إليها . وفي هذا المنزل قبلت مس هتشر دعوته فجاءت لتقيم معه . وألحق أنه كان بحاجة إلى صديق روى يبادل الرأي ويدرك وإياه صور الحياة . فلقد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة . وكان هو يومئذ في بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة في ديوانه (بالمملكة ماب) أودعها ما وصل إليه من فلسفة . وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه . . فلما حاول يريد أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر

ولا تفهم الفلسفة . لذلك طار سروراً من مجيء مس هتشنر وطلب إليها أن تزيد في تهذيب زوجته . ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تبايناً ينتهى إلى الإفتراق وإلى انتحار هاريت غرقاً ويدس إلى حياة شلى همماً ناصباً يظهر أثره من بعد في كثير من شعره .

٣- بعض نثره وشعره :

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنوت و معه زوجه هاريت وستبروك وأختها إليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢ . ومن لنوت وجه شلى إلى القاضى لورد اللنبرا خطاباً كان أعظم أثراً وأشد وقعاً من كل ما حاوله فى أرنلندا ، وكان وما يزال ينبئ عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر . فقد حكم هذا القاضى على مستر إيتون بالسجن والتعذيب ، لأنه نشر كتاباً يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل . ولم يدر بخلد أحد أن يعمل من هذا الحكم موضع طعن أن كانت للأحكام فى كل أمة قداستها . على أن كتابا فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى الحكم ظلماً عن أن يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لإعادة النظر فى الدعوى . وهذا فولثير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه على إعادة وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعاً لحملة انتهت بإعادة النظر فى الحكم وإعادة شرف كالا إليه بعد إعدامه وإزالة ما ترتب على الحكم الأول من نتائج بالنسبة لأبنائه ووارثيه . والحكم على مستر إيتون أجل فى نظر شلى خطأ ، فهو لا يقتصر على إدانة إنسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حر الرأى إلى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليدوموا السير بالإنسانية

إلى ناحية الكمال . لذلك وجه إلى اللورد اللبرا خطابه القوي مفتحاً إياه بقوله :
 «مولاي - أما وللمركز الذي دعنتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة
 عليه هي لذلك أعظم خطراً . ويجب لذلك عليك مداومة النظر في أنك لم تحكم
 خطأ بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص . . . وصحيح أن القوانين القائمة
 تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية إياك بسبب الحكم الذي أصدرته على
 مستر إيتون . لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الأمة عليك وعدم
 موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الإعتاق عليك إذا
 كان للإعتاق أن تعنى بذكر شأنك » . ثم ينطلق شلى مندفعاً : « لكن بأى حق
 تعاقب مستر إيتون ! ليس هنالك إلا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت
 وظلمهم هي التي يمكن التذرع بها لإهانة الإنسانية والعدالة هذه الإهانة المزرية .
 فأى رجل أضربه مستر إيتون ؟ وأى جريمة ارتكبت ؟ ولم لا يسر حيث يشاء كما
 يفعل سائر الناس ، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس
 هذا الرجل الذي أتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف إنسان ؟ » ويسوق شلى الحجج
 بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض بدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم
 وإخاء الإنسان للإنسان والوسيلة الوحيدة لاستعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب
 والاضطهاد لم يجرأ على الإنسانية إلا وبلات كانت أداتها لورد اللبرا .
 ويسوق هذه الحجج في لهجة قوية تظهر في مثل قوله :

« إن نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه إلا اضطراب المنطق فيه ، فالطابع
 منقطة بما يسمى (تهكأ فيما أظن) الأدلة المثبتة للمسيحية ، وهي كتب حافلة
 بالمطاعن والأكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من
 الإدراك والشعور ، وسيبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الأباطيل
 الشائعة المنفرة ، مبادئ أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه المقدمات

المفترضة ، بنى شاهقة المنطق . ولكن إذا كان الأساس واهياً فما الحاجة إلى مهندس
 نبشنا بداعى البناء ؟ وإذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه
 الكتب ؟ وإذا كان الموجود من الكتب كافياً لإثباتها فما وجه الحاجة إلى جدل
 جديد ؟ وإذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ وإذا كانت المسيحية ينقصها
 علم أعمق وبحث أشق لإثبات حقيقتها ففيم اللجوء إلى القهر فيما لا يسع سوى العقل
 الإنسانى أن يؤديه على وجه يرضيه ؟»

وهو يعود بمثل هذه اللهجة ، ناعياً على التعصب داعياً إلى التسامح ، محاولاً
 التدليل على أن الإضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره إلا دفع
 الجماعة لتقديس ذكرى من حل الإضطهاد به ، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى
 لغير شيء إلا تعذيب اليهود إياه ، وذلك حين يقول :

« من الحقائق التي لا سبيل إلى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجاً متعصبين ،
 أو لو أن عزيمته بوتياس بليت كانت كصراخه ، لما استطاع الدين المسيحى أن
 يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد . فإنا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخبط
 الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك ! تعلم على الأقل
 التواضع ، وأعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم
 بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف
 كذلك على الأقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلاً
 لكرهك . أمن أجل أن إنساناً مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة ، يكون حقيقاً
 بعقاب التعذيب والسجن ؟ وإذا سلمنا يجوز الإضطهاد الدنى فما أوسع الباب
 الذى يفتح ويفتح منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلامه ! وأى
 وحشية وقطيعة دموية لا تقلب مباحة ؟ ولكنى أسأل : أليس ذلك الرجل الذى

ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لأنه إما أن يثبت زيفها وعمقها (وبذلك يقضى على ما هو زائف ولا طائل تحته) وإما أن يتيح لأنصارها الفرصة لإثبات صدقها وجهاها . وهذا - على التحقيق - لا يمكن أن يكون جريمة . فإن من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجريء في كبرى المسائل التي ترجع في مرد أمرها إلى طبيعتنا الأخلاقية ، يكون أجدر بتشجيع المشرعين المتورين منه بأن يحق به انتقامهم . وأحب أن تعلم يا سيدى اللورد أن أغلال الحديد لا تقيد ولا تخضع روح الفضيلة . وأنها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها ، وترتفع حرة جريئة إلى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم في القضاء . ولست أدعوك لتحذر أن تنسبك مسيحتك أنك إنسان ، ولكني أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعاً في ظل نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة ، وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق .

ويصل إلى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك في عبارة بالغة غاية الإبداع ، حين يقول :

«سقى سقراط السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التي كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ما عتمت أئينا بعد موته بقليل أن تبين لها ما في حكمها عليه من الظلم فانتصفت له من متهمه «مليتاس» ورفعت سقراط إلى قريب من مراتب الأرباب .

«وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس مومى ويستبدل بها ما هو أدنى إلى الإنسانية وأشبه بالخير . ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى إلا الفعلة الشنعاء ، فسرح براباس القاتل الخائن وقدم

المسيح الوديع المصلح قرباناً لإله اليهود الدموي . ثم مضى الزمن وتبدلت الأحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء على عاداتهم من التطرف - يرون في صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها - وما أكثرها في عصور الجهالة - ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة في النفوس مع العصور والتقت بأحلام أفلاطون ومنطق أرسططاليس ، واكسبت القوة والسعة والإمتداد حتى تفرقت ألوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك في صحتها جريمة وعاراً .

والمسيحية الآن هي الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع في ذلك فعليه أن يوطن نفسه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدمونه في اعتبار الرأي العام . إلا إذا كانت عبقرته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الأحوال ما يكفل له أن ترفعه الأجيال المقبلة إلى مصاف الآلهة وأن تضطهد الناس باسمه وفي سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه إلى الفوز بعبادة العالم .

ثم يختم خطابه بقوله :

« إن الزمن ليقترّب مسرعاً حين يعيش المسلم واليهودي والمسيحي والمؤمن والملحد معاً في جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الإحسان والحب الأخوي . وأرجو لمولاي اللورد أن يرى ذلك اليوم » .

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لإتمام قصيدته « الملكة ماب » . لكن حياة لنوث بدأت تثقله وتدفع الملأل إلى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت إلى نفس زوجته من مس هتشر فرأت فيها منافساً لها دس الهم إلى حياتها . وربما وجد شلى الوسيلة إلى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته في تفكيره وإلهامه ، بما يزيدة تحليقاً في سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان . وزاد

في هم أن رأى هاريت لا تتابعه في جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسمواً على سموه ، بل وقفت تتلفت إلى ما حولها تبغى من متاع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه . حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء في وحدة الريف واعتزم العود إلى لندن عله يجد في الجماعة مسلياً عن هذه العواطف الوضيعة التي بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفي مقابلة جدوين منشطاً لروحه في توثيقها للعمل على سعادة بني الإنسان إخوته . واختار في العاصمة فندقاً صغيراً أقام وصحبه فيه . ثم ذهب مع زوجته في يوم من أكتوبر يزور أستاذه في موعد حدده . وكان جدوين يقيم بمتزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتباً للأطفال ويبيعهها . ذلك أن مكانته التي بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسي) والتي دعا فيها إلى هدم نظم الزواج والأسرة والتزوع إلى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب قسيماً خرج على زمرة وأطلق العنان لفكره . لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من ماري ولستكرافت التي ماتت تاركة له ابنة دعها باسمها ماري وابنة أخرى من زواجها الأول هي فاني املاى . ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدى إعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هي جين كليمون . وقد اجتمعت الأسرة في انتظار زيارة شلى وزوجته لم يتخلف منها إلا ماري ، التي تزوجها شلى من بعد ، لأنها كانت على سفر في ايقوسيا . وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلى وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط . على أن فاني وجين ، وكانتا فتاتين ذواتي جمال وعلم ، ما لبثتا أن رأتا شلى واستمعتا إليه حتى أظهرتا غاية الإعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه ومتوقد خياله ، وحتى شعرت كل واحدة منها في أعماق نفسها بميل نحوه دفعها إلى التقرب منه والعمل لإجتذابه ، وشعر هو من ناحيته بأنها أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر .

ومن طريق أسرة جدوين تعرف إلى أسرة نيوتن . وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية إلى حد ملك لب شلى . وكيف لا تملك له ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فطبقت في كثير من نظم حياتها مبادئ الإنسانية التي أعلنتها الثورة . لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جميعاً يميلون إلى ناحية الحياة الطبيعية التي دعا روسو إليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة . ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ما داموا في الدار . وقد قارضوا شلى إعجاباً بإعجاب وتقديراً بتقدير . وشاركتهم في ذلك أخت لسز نيوتن تدعى مدام دبوا فقيل تربت هي وابنتها في فرنسا ونشأت على تعاليمها . وكذلك استطاع أن يجد في المدينة منجاة من تلك الوحدة التي أثقلت كاهله في لنوث والتي اضطرتته إلى هجر تلك البقاع الجميلة المحيوبة التي ألهمته خطابه إلى لورد اللبرا والتي كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكة ماب) .

وزاده أنساً إلى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته ، وأختها إلزا على وجه أصح ، أن تجعل عيش مسز هتشر معهم محالاً حتى لتطلب هي مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى إياها من انقطاعها عن المدرسة التي كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت أنها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة . ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التي كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها براً بها وتقديراً لتبعته في دعوتها . وعلى أثر سفرها عاد إلى جو الأسرة طمأنينته وعادت هاربت ابسامتها وعادت هي إلى تغريدها . ومع ما كانت تلمع إليه بعض فتيات جدوين من ميلها إلى التجميل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية ، ومع ماكن يتهاسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التي نسعه وتلهمه ، فقد ابتهج هو بعودها إليه وفتح لها من جديد كل قلبه . ثم زاده بها شغفاً أنها حملت ، فود أن يستعيد وإياها ألوان متاعها السابق . لذلك هجر

العاصمة ومعها إليزا وسافرا إلى إيرلندة وإلى الغال لا يتغيان من رحلتها هداية أحد ولا الدعوة إلى جديد ، وإنما يرجوان أن تحدثها أماكن شهدت غرامها بأهازيج هذا الغرام لتزيد في أنغامه الثائرة من حنايا جوانعها ما يزيدهما صباة وهوى . وكانا سعيدين طوال رحيلها مطمئنين إلى حبيها . على أن ما دعا في الحقيقة إلى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى جعلته يحس في أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئاً قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلوبها وأن يتر صلة حبيها . وكان رجاؤه أن يعود إلى ملك عصفوره إذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن أحداً ينازعه فيه . وكان رجاء هاريت أن تعود إلى ملك صاحبها وأن تنزل به إلى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها .

وتقدم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم إلى العاصمة مرة أخرى . ووضعت بنتاً أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصاً على صلاتها بالجمعية وعلى محاسنها إياها . وفيه كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة إذا كانت لا تطمع في حياة ضريباتها النيلات ، بل في حياة العامة من الناس ؟ ولعلها كانت لا تغلو في هذا الميل لو أن أختها إليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها إلى أن ذاك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى . واضطر هو آخر الأمر إلى الإذعان لمشيئتها ، فاقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة إلى بائع الحرائر وأخرى إلى صانعة القبعات . ثم ألحت عليه ، وعاونتها إليزا في إلحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه . واضطرت ، فكتب له يرجو زوال ما بينها من قطيعة . لكن هذا السعى أخفق بعد أن أصر مسرر تمودى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود إلى حمى الجمعية ونظامها . وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب إليزا وقلب هاريت وزاد فيما بين الرجل وزوجته من شقة خلف كان

لا يزيدنا تعاقب الأيام إلا انفراجاً . وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة في مقامه بين أسرتي جدوين ونيوتن وفي السفر وحده إلى حيث تقيم مدام ديوانفيل مع ابنتها كورنيليا ترنر يقضى في ضيافتها أياماً وأسابيع . بل لقد أقام عندهما في إحدى الضيافات شهرين متتابعين تاركاً هاريت وأختها ينعمان بما تشاء أهواؤهما التي هوت إلى مستوى أهواء الجماعة الإنسانية ، وكان إعجابها بكورنيليا يزداد يوماً فيوماً حتى انقلب حباً وحتى فكر في اختيارها رفيقة حياته .

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها في التفكير وتطبيقها صور تفكيرها في طعامها وفي حدود المنزل ، أسرة أرستقراطية النزعات في علاقتها المدنية ؛ فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى في مخالطة كورنيليا . وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسمو الإدراك ما لم يكن يحده إلا في جماعة جدوين . على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو إلى حد عن تكرار زيارته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعها كل مادار في نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه في أثناء مطالعته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التي ظن أن القدر ألقى عليه إبلاغها للناس . وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديداً حين قابلت (الملكة ماب) بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا في الشعر نجم شلى . بل لقد ظلت حتى اليوم منظوراً إليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير .

ولقد كان واجداً عن فتور الجمهور بإزاء قصيدته عزاء لو أنه وجد في هاريت أوفى غيرها عطقاً عليه يقوى عزمه ويشد قلبه . لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت في إهماله حتى لم تأب الظهور في الجمعية مستندة إلى ذراع الضابط رايان الذي جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها إيزا معرفة قديمة . وقد حاول شلى أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار إلى أعماق مما انحدرت إليه ،

لكنه ألقى هذا القلب تحجر فلم تعد تهره يازائه عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضي ولاررجاء في المستقبل .

وإنه لنى يأسه من هذه الناحية إذ أقبل عليه جدوين يستعينه في متاعب مالية أعانه شلى من قبل في مثلها . وطار شلى إلى داره راجياً أن يجد في صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة جيبها . ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هذه المرة . فقد طالما تحدث إليه جدوين عن ابته ماري وذكاتها ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم ، ولطالما وصفها له جين وفانى على أن ذكاهما يعدل جالهما . وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع إلى الجمال الذكاء وإلى عذوبة الروح سمو النفس وإلى طهارة الضمير عظمة القلب ، والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى الفضل والخير الكينية مبعثرة فى ثناياه . ما كان أشد حاجته إلى أن يهب كل ما فى قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التى تضىء وجهها بكل جمال الوجود . وألقى ماري ساعة وصل إلى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست بين جين وفانى اللتين قدمتهما إليها وذكرتاه بمديتها عنها كما ذكرنا له أنها حدثتا أختها عنه . ولم تك إلا سوية تحدثت ماري إليه فيها حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى فى جالها وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسوية مجتمعة إلى النشاط والطلعة الذهنية التى تميز الشبان ، اجتمعاً كان يراه دائماً صورة الكمال الإنسانى فى خير ما يستطيع الفن أن يكون . والحق أن ماري كانت ذكية الجمال تنطق قسامت وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوى عليه جوانحها من أنفة ، وتم عيونها الكستنائية اللون عن شىء من الألم لم يعرف شلى مصدره إلا بعد ما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها ، وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم إلى هذا القدس تنطوى صفائحها على أقدمس حب امتلاً قلبها به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلتا كل يوم

دأبها الصلاة له : ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر دهر .
ولما علم جدوين بما بين ابته وشلى حال بينهما ومنعه عن بيته ، فأجج بذلك
نيران قلبه وجعله يعترم اصطحابها والفرار وإياها ، وأيقن أن لن يؤنبه ضميره من
ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها لا تعنى بغير ماله . فدعا بها من الريف إلى لندن
وأخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتباً يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين فلم
يحتمل الصدمة فرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه إليه فلم يفلح أن كان قلب
صاحبه قد أصبح في ملك غيره .

٤ - ماري جدوين :

كانت أبواب أوروبا قد فتحت أمام الإنجليز بعد ذهاب نابليون إلى إلبا ، فلما
أبلت هاريت من مرضها اتفق شلى وماري وصحبتها جين ، أن كانت تشرب ميل نحو
شلى ، فسافروا إلى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن . على أن مقامهم بين جبالها
وعلى شواطئ بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها إلى بيت صغير على
شواطئ التمس أقام ثلاثهم فيه . ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلى لماري من غير
زواج بينها لمقاطعة جدوين إياه وتحريمه بيته وعلى اللتين فرتا معه ، وذلك برغم ما
كان لشلى على جدوين من فضل إمداده بالمال في ظروف كان هو وزوجه هاريت
في أشد الحاجة إليه . بل لعل هذا الإسراف من جانب شلى كان أهم ما غير قلب
عصفوره عليه ودفعها إلى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من
مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفاً غير لائق بالفنوس السامية . ولم يكن جدوين
وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دهبانفيل ، وانقطع
عليه كل سبيل لرؤية كورنليا ترنر . ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه
القديم هوج وصديق استحدثته في الزمن الأخير يدعى بيكوك .

على أن عزلة شلى مع خليلته وجبن لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهاباً دفعها إلى ما يشبه الجنون . فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن إليها عزمه على الاتصال بمارى جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا في قلبها ، حتى صارت لا ترى عليها من بأس في التحجب إلى أمثال الضابط رايان ، تلهبه الغيرة من جديد . وأى شيء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ إنها لترى حقاً لها أن تعذب من تحب وأن تصد عنه وأن تلاطف غيره . ولترى واجباً على محبها أن يرى في صدها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والإذعان لكل أمرها والتماس الصفح عما دعا إلى هجرها ، وإن لم يك شيء قد حدث يوجب التماس الصفح عنه . بل لترى واجباً كذلك عليه ألا يقتضيه إسماعده أو تهوين الحياة عليه . فإن فعل فهو أثر لا قلب له والأثانية ملء نفسه . أما إن رأى في امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة الغادرة هي أخط من حملت أرض أو أظلت سماء . وكذلك كانت ماري في رأى هاريت . وقد ازدادت لها بغضاً وعن شلى إعراضاً حين بعث إليها يستضيفها عنده في بيت ماري . أف لها من منافقين ! وأف لهذه اللعينة ماري التي لا تراها هاريت تعلمها رشاقة ولا جمالاً ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح ، بل التي لم توت أى حظ من الجمال ، بل التي تستحق أن تسحق وأن تعض بالأسنان وتقطع بالأظافر . ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقم منه هاريت شر انتقام .

كان ذلك شأن هاريت . أما فاني أملاى فقد جعلت تحس في بيت جدوين وحدة ممضة مؤذبة ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها في البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذكر ما كان يفيض به إزاء شلى من حب وإخلاص . فها هو ذا شلى قد اختار ماري عليها . وهذه حين قد وجدت في نفسها الجرأة

لتصحبها . أما هي فلم يبق لها في الحياة إلا أن تنظر إلى أشباح اليأس يحيط بها ، وأن تمنى لشلى في نفس الوقت الهناء والسعادة . وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله ماري جدوين عليها إلا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته . أم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هي الأخرى تاركة إياها يتيمة الأبوين لا معين لها في الحياة إلا برهذا الرجل الذى استبقاها عنده رافة بها وإشفاقاً عليها ! فإذا فضل عليها شلى أختها لأمرها فليس ذلك أسمى ما أصابها به القدر . وبمسبها أن تظل على إخلاصها له وراثتها لما وصل إليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف . بل لقد أثقلت الديون حتى اضطر دائنوه إلى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتعقبون شلى يريدون إلقاء القبض عليه كى يني بديوته أوسجن . ولولا بقظة فاني وإخطارها شلى بالأمر وفراره من متعقبيه لذهبوا به إلى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء .

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه إلى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود في نعومة أظفاره ، فانهدت قواه واندرس المرض إلى صدره وأظلمت الدنيا في عينيه ورأى شبح الموت مقبلاً يبتلع . كم كان من قبل سعيداً مع هاريت ! وكم كان سعيداً بمحدث صديقاته والمعجبات بنبه وجمال وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة إليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف ماري ! وهذا هو يرى نفسه معها منفرداً يتحاشاه الناس ويفرون منه فراراً ثم لا يكون له عنهم من بديل إلا مرض قاتل . بالليأس ! أيها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة ! أحق أنك جميعاً قد تخليت عن هذا الرجل لغير شيء إلا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أوحق أنك حكمت عليه بالموت

لأن جمعية التفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما في ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن . فهذه ماري ما تزال تحنو عليه وتبعث إليه من دفء قلبها المملوء حباً ما يستبقى خيط الرجاء معلقاً فوق هاوية اليأس .

لكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته . بل لم يمنعه من أن يمدق فيها يبصره ويستمد من مناظرها المؤسية إلهاماً سامياً أوحى إليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى : « الاستور أو روح الوحدة » . وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف في الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذي يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحى الهدى ولا مبعث لسمو الإلهام . « وأدت به خطاه طائفة مسبح أفكاره السامية إلى زيارة ما خلفت الأيام الخالية من خرائب الآثار . فزار أثينا وصور وبعلبك والبطيح الذي كان مقاماً لبيت المقدس وأبراج بابل المهتمة والأهرام الخالدة ومنفيس وطية وكل ما تخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة . وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمدة والصور العجيبة لما هو أعظم من الإنسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال ، وحيث يعلق السلف أفكارهم الصامته على صمت الجدران المشتملة إياه - هناك ، أمهل الخطا مستذكراً العالم في صباه ممدقاً طوال النهار المحرق بهذه الصور الصامته . وما كان القمر إذ يملأ الصالات العجيبة بظلاله المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره . بل ظل يمدق ويمدق حتى أضياء خلاء عقله نور كأنما هو الإلهام القوي جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس ، وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكلها غراماً . لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال بلاد العرب والعجم والهند ، جواً ربوع الأرض وأقطارها باحثاً عن الحقيقة ، حتى إذا كان يوماً مستلقياً خلال غابة تظله رأى في أثناء نومه « صبية مبرقةة تجلس إلى جانبه وتتحدث في أنغام مهوبة

خفيضة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع إليه في هدأة تفكيره . . وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها . كذلك كانت الآمال الكبرى في الحرية المقدسة وما إلى هذه الآمال من أفكار هي أعز الأفكار عليه . ثم كان الشعر أن كان هو شاعراً . وتجلت الصبية له في خلال هذه الآمال والأفكار والمنى فإذا جمال شخصها عدل جمال نفسها . واندفع محاولاً ضمها إليه والإمساك بها ، لكنها تراجعت ثم ابتلعها ظلم النوم . ولم تجده محاولته إعادتها إلا أن أيقظته المرة فإذا القمر ينحدر إلى المغرب وتباشر الضياء ترتفع خلال سحوف الليل . «إذن ضاعت هذه الصورة الجميلة ، وضاعت إلى الأبد في تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الكالحن ! أفئدى باب الموت الأسود إلى جنتك العجيبة أيها النوم ؟» وينطلق الشاعر مفكراً في أثناء تطوافه مستذكراً صورة النوم الجميلة ملفياً جالها في كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال . وفيما كان عند اليونان بصر بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه إلى لحن الموج يتقاذفه رجاء أن يجد إلى الموت سبيله . وتدافع الموج والزورق حتى دفع به إلى جبال القوقاز في نهر تحيط به أحراش وغابات ، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يقرب له الأمل في النجاة بالموت والعود إلى صورته الجميلة التي أراه النوم إياها . وفي هذه السياحة يشدو شلى متغنياً ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب إلى نفس بطله الشاعر المشوق للموت حتى يصل ببطله إلى غايته . وفي سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلى في النهر الذي أبدعه خياله ما نقل بصره إلى حسه من آثار حين عوده من سويسرا ركباً نهر الميز ونهر الرين وما على شواطئها من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التي زارها بعد عوده إلى إنجلترا وحين هذه المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة التي تهز القلب والفؤاد - مناظر شواطئ التمس كانت وما تزال مثل جمال قل في الجمال نظيره .

قال شلى مقدماً قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين . ذلك أن الشاعر في عزله وانحصار خواطره في نفسه ، تأثر منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ وإياه إلى الدمار السريع . على أن الذين لا يمدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى إلى شك المعركة ، ولا تضللهم خرافة باهرة ، ولا يجنون شيئاً على هذه الأرض ولا يتعلقون بأمل وراءها ، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرون بأفراح الإنسان ولا يأسون لأحزانه - هؤلاء وأمثالهم يبيءون بلعنة عادلة : يذوون لأنه مامن أحد يشاطرهم الإحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من أبناء الدنيا ولا المحسنين إلى بلادهم - وأخلق بالذين لا يحبون بني جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيثوا لأرواحهم في كهولتهم قبراً موحشاً . وإنك لترى كل تلك المعاني التي أوردتها المقدمة متجلية في أبهى صورها وأعظمها جلالاً وروعة في هذه القصيدة التي لا تريد على سبعمائة وعشرين بيتاً ، والتي تمثل حياة النفس لعباد الوحدة عشاق الطبيعة ، مصورة في ألحان سماوية الموسيقى إلى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسبك فيها جمال الأنغام بديع الصور ، ولينسبك إبداع الصور روائع التفكير ، ولتنسبك روعة الفكرة جمال النغم . ثم تتراوح الأنغام والصور والأفكار فيلد تزواجها صورة الشاعر الشاب شلى في وحدته المنقطعة وأمله المهتم في الحياة ومواجهته الموت في رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة .

وفيما كان شلى في هذه الحال توفي جده السير بيش وآل إليه بالوصية إيراد سنوي يبلغ ستة آلاف من الجنيهات . ولو أنه لم يكن في شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر إلى مزيد المال على أنه جريمة تدفع إلى النقص وترزى بالفضيلة ، لناصب أباه

الخصومة حتى يصل إلى كل ما أوصى به جده . لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا إذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شردائيه . لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله ألف جنيه في السنة تكفيه وتكفي ماري ، وتكفي من يلوذون به من صحبه . وردت إليه هذه الطمأنينة المادية شيئاً من سكينه النفس كان في أشد الحاجة إليه ليتغلب على مرضه . وتغلب بالفعل عليه . وبدأ في سماء المجد يتألق له نجم إن لم يكن ساطعاً سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه . على أن الأقدار لم تكتب لنفسه طول سكينه يوماً من الأيام . فقد بدأت ماري على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معها في البيت . وزاد هيب هذه الغيرة ضراماً حين حملت فلم تستطع ملازمة شلى مما جعل جين تصحبه في جولاته وتعود وإياه متوردة الخند فيأضه القلب بما يبعثه شلى إلى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود . وما عسى أن يصنع شلى بإزاء غيرة ماري إلا أن يظاطئ لإرادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل في حال عصية تثير معها كل مناقشة إياها لمشيئة تعلقها دموعاً تذرف وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الإخلاص ، والذي لا يرى مع ذلك في الحب معنى الأثرة الذي يذكي الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاشترك مع كل من في الوجود في الإحساس والعاطفة . واضطرت جين لمغادرة المنزل وفي نفسها من الحب لشلى ما بغض ماري إليها ودفعها للتفكير في الانتقام لأنفثها الجريحة . ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام . فإذا كانت ماري تعتر بجلبيلها شلى وماله من نيل ومجد ومال فلتتحذ هي خليلاً لها أعرق من شلى نبلاً وأعظم مجداً وأكثر مالاً . وليكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه . ولم تلق في تحقيق غايتها عنتاً . فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يعاب بالعفة ولا بطهر القلب . على أن ماري استراحت حين علمت بنجاح صاحبها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها .

وظلت ماري في سكينتها حتى وضعت طفلاً ثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة . ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وأن وضعت غلاماً أسمته باسم أيتها وليم . ولكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثاني وبرغم شعورها بكل ما في الأمومة من مزيد في الحياة ، جعلت تحس وحدتها وسط الجمعية الإنجليزية ترداد ووطنها ثقلاً عليها وعلى برسي . وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يبيح غيرتها بمقدار ما يبيح آلام زوجها ويبعث إلى نفسه نوعاً من لدغ الضمير طالما حاول إخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائباً على تعذيبه . فقد أصبح هجره هاربت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه . وكان إجماعهم منعقداً على أن البائسة لم تأت إنمأً ولم تجن ذنباً ، وإنما الذنب والإثم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها ووطن أن لم تبق له جريرة عندها مادام قد ضمن لها ولأبنائها منه رزقها . وألح بالزوجين هذا الشعور فأنتها إلى استحالة المقام بإنجلترا وضرورة هجرها إلى حيث لا يعلم قصتها أحد . وإذا كانت هواجس ماري قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبها وصلتها منذ نشأتها ، فقد سمعا إليها حين اقترحت عليها السفر إلى سويسرا للمقام عند ضفاف الليان على مقربة من جنيف . وزاد ماري اطمئناناً إلى اقتراح صاحبة سرها أن علمت إنمأ حملها عليه اعتراف بيرون أن يسافر إلى تلك الناحية فراراً من اتهام الجمعية الإنجليزية إياه بمعاشرة أخته أوجستا . فلن تعود بين جين وشلى إذا أية صلة مادام بيرون سيقوم منها مقام شلى من ماري . وإذا فليسافر ثلاثتهم إلى ضاحية جنيف وليتظروا هناك مقدم النبل العظيم . ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت جين مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون . على أن أمتن ما قوى صلتها كان الوسط الذى يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشعرى البديع الذى يوحى إلى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعراً ويزيدها للجمال قدراً . وكان هذا

الوسط ، أول تعارفها ، في أجمل فصوله . فقد نزل جنيف إبان بشارت الربيع في
مختم أبريل ومفتح مايو حين تبدأ حياة الطبيعة بقعاتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو
أوراق الشجر في خضرتها الجديدة ما يزال لها كل صباحها وكل ماللصبا من بهاء
وروعة ، وحين الثلوج ماتزال تغطي قمم الجبال وتكسو عوالم سفوحها كساء يتباين
ضياؤه في أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس ، من الأحمر
القاني إلى الأحمر المتورد ، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور ، وحين تنعكس
سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح
هادئاً ، فإذا دفعت الريح الموج متلاطماً فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم
وثلوجها توج متلاطمة هي الأخرى . قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجداه فيه
خير مسرح لحياتها المتوقد وإن شعراً في شغاف قلبها بحب له يزداد استعاراً كلما
ازدادا من هذا الجبال الساحر هلاً . وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ،
بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها في العالم . حب المرأة أناني أثر
غايته الحياة والملك والمذلة والاسترقاق . فكل شركة فيه تنتهي إلى الجريمة ، عهراً
كانت الجريمة أو غيرة ، وتنتهي إلى القتل وما هو شر منه . أما حب الجبال في غير المرأة
فهو الحب الذي يفهمه شلي وينادي به ويدعو إلى الشركة فيه . هو تقديس الجبال
في كل مظاهره والاشترك في هذا التقديس ليزداد بالاشترك سموً وجلالاً . وكم
كان لجمال سويسرا واشترك شلي وبيرون في تقديسه من أثر في شعرهما . على أنه مع
ذلك لم يقرب بين روجيهما ، لأن كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر في نظرتة
إلى الحياة تمام الاختلاف . فقد كان عقل شلي وقلبه وشخصه وكل وجوده شعراً
خالصاً . كان لا يعرف شهوات الإنسانية ، ولا يخاط بنفسه وضيع عواطفها ،
وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموساً محسوساً ، وكان يصور كل ما يقع عليه حسه
وكل ما يحيش بقلبه في أنغام من الشعر والنثر لا أثر لتغير روح الجبال وعبادته فيها .

وإنك لتعجب حين رجوعك إلى ديوان شعره وإلى رسائله وكتبه ، إذ ترى كل سائخة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى في يقظته وفي نومه ، قد اكتسب ثوب الجمال ، وإذ ترى هذا الجمال مصوراً أنعاماً قدسية يختلط عليك حين تقرأها أشعر هي أم موسيقى أم رسم وتصوير . أما بيرون فكان شاعراً ، ولكنه كان إنساناً له كل شهوات الإنسان قوية غالبية عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشذو به في شعره سامياً بهذه الشهوات نفسها إلى سماء الشعر ملبساً إياها شغوف الجمال . وكان بيرون مشغولاً بالمجد تتسلط عليه شهوته إلى حد أشفق معه عليه شلى كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله إلى مراتب الإنسانية الوضيعة برغم ما أنعمت به آفة الشعر عليه من جمال في النفس وسمو في الفكر . وكم حاول أن يتزعج به إلى غير ما تدفعه إليه شهواته ، وأن يجذبه إلى ناحيته ، ناسياً أن ليس في مقدور إنسان تموير طبعه . ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل يرأسله طمعاً في إنقاذه من براثن شهواته التي كانت في نفس الوقت مصدر كل وحيه وإلهامه .

وبرغم ما امتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين إلى بلده . وكان حنينه قوياً منذ أول مغادرته شواطئها وإن كانت هي التي ألبأته إلى هجرها والفرار منها . قال في خطاب بعث به إلى صديقه بيكوك يعبر عن تحنانه : « إنكم لتعيشون على شواطئ نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطي الغابات سفوحها . ثم إنكم لتعيشون في بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر ، وتطمثون فيه إلى ما يقع في منكمم . وما بقيت هنالك ممالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التي تنطوى فكرة المملكة عليها ، فأنا واثق من أن إنجلترا أكثر الممالك حرية وتهديباً . ولعلك كنت حكيماً في اختيار طريق حياتك . على أني إن عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على ما رأيت من ممالك أخرى . فلدينا لا ريب كثير من الخبيث والطيب ،

و كثير يُزدري وكثير يمكن السمويه نحو الكمال . لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . وما دام الإنسان على ما هو عليه فإن التجربة التي جربها لن تدعوه لاحتقار الأمة التي ولد فيها . بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشد شعوراً بجياله . فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا ، وقرانا ومزارعنا التي لا شبيه لها عند غيرنا - كل هذه روابط لن تنبت ولن تحطم أو أصبح ولا إدراك عندي ولا حس لي .

ورما فات شلى أن يذكر شيئاً آخر يربطه بإنجلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة . ذلك عصفوره هاريت وابته يانت وابن هاريت المنسوب إليه وإن أنكر هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير في أثناء وجوده على شواطئ ليمان في هاته التي ترك وإن كان يعلم أنها في طمانينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت إلى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه في ذلك بعض التبعة ، ويحاول إقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت إليه أفليست يانت ابته ويجرى في عروقها الدم الذي يجرى في عروقه . لكنه لم يكن يستطيع الإسراع إلى مغادرة سويسرا ومارى متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنها بصاحبها وبها . لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقاً جعلاً من رياضتها عليه فوق ليج اللبان مستوحى لإلهامها . وكثيراً ما كانت تصحبها ماري وجين ، فتفتنى هذه الأخيرة بصوتها الخلو الرقيق توقع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافي ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالاً وما يزيد الهام للشاعرين روعة وقوة .

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانا في إنجلترا وآن لها وهم في سويسرا أن تضع طفلة دعها كلارا اللجرا . من يومئذ بغضت إلى نفس بيرون . وازداد لها بغضاً حين تحدث إليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان

بيرون في هذا الظرف غليظ القلب مغالياً في التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعاً واعتبارهن متاعاً لشهوة الرجال إلى حد لم تطقه الذكوة الأنوف ماري ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذي يدعوه الناس نبيلاً فإذا نبه فحة ، ويحسونه شاعر الحب فإذا حبه شهوة وإذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه في المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى في فكرة العود إلى الوطن ، فكتب إلى بيكوك يطلب إليه أن يستأجر له داراً (فيلا) على شواطئ النهر وبين الأحراش والغياض .

وعادوا إلى لندن وفي عزم شلى أن يستقر بوطنه طول حياته ، غير ذاكر أن لا سلطان لأحد من الناس على مصيره ، جاهلاً ما خبأته الأقدار له من فواجع تقص مضجعه وتضطره إلى المقام بقية أيامه بعيداً عن إنجلترا . فقد كانت فاني أملاى تراسلهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث إلى حياتها البائسة خيطاً من نور الأمل في رؤيتهم يوماً من الأيام . فلما عادوا إلى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين ، مع وجود أمها في بيت جودوين ترهق فاني وتعذبها في حين كانت فاني أحق بهذا اليسار إلى جانب أختها ماري ، ولما كانت لا تستطيع الالتجاء إلى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقاً يجعلها لا تطيق المقام إلى جنب ماري ، بعثت إليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : « إنني ذاهبة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . فسارع شلى بالسفر إلى برستول ومنها عرف إلى أين مافرت الفتاة ، وذهب إلى الفندق الذي نزلت به فألفاها انتحرت بالسم وتركت خطاباً تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها .

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه . وزاده اهتزازاً ما ذكرته مسز جلدوين من أن فاني انتحرت لفرط حبها إياه حباً ضاع كل أمل في أن يجد ما يحييه . وعن هزة قلبه يعبر في أبيات ستة يقول فيها : « أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت

أدرى أن القلب الكبير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما ألفت من كلمات . إيه أيها
 البؤس ! إن هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب
 لحادث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة . ذلك أن هاريت بلغ من
 انخراطها في اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت إذ
 ذلك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلى ، ويرفع ماري في نظر الجمهور عليها ،
 ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت إلى نهر
 ألفت بنفسها فيه ، فانت متحرة هي الأخرى . ولم يكن بين انتحارها وانتحار فاني
 إلا أيام . وذكرت التمس خير انتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها . وكان هذا
 الخبر أقسى مما يستطيع شلى أن يطيق : دعاة فحمل فانتحار . ياللعار ! ويابؤس
 أبنائه بأم تلك خاتمها ! ويابؤسه هو بحياة تسير مسرعة بالذبول إلى أوراق الربيع منها
 فهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته إليزابث ويغتبط للتخلص من مس
 هتشر وتجنافاه كرنلياترتر وتنتحربسببه فاني املاى وهاريت وستيروك . ترى ألم يأن
 لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه نائرتة ؟

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه في ذلك أبوها وتقاضيا
 فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويحشى أن ينشئ أبنائه عليها .
 وإنما خفف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة إلى من اختاره شلى مطمئناً
 على إقامته في تربية أبنائه .

وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على ماري وأن تعود لذلك صلته بجماعة
 جدوين . وكان العوز قد ألح بمؤلف (العدل السيامي) حتى صار عائلة على شلى هو
 أيضاً وحتى جملة يعود إلى الاستدانة من جديد . ولم يكن جدوين وزوجه وحدهما
 هما اللذان كفل شلى في ذلك الطرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان له خمسة
 أولاد من زوجه ماريان ، وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى

في كتابها خيراً وإصلاحاً للجماعة . مع ذلك كله ، مع الاضطراب المالى ومع انتحار فإنى وهاريت في أيام ، ومع منازعة وستبروك إياه في حضانة أبنائه ، فقد تحصن شلى بإرادته الصلبة وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب . وشلى ، على رفته وإيثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنعام الشعر ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف في سبيلها عقبة من العقبات . تحصن بهذه الإرادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التي مرت من نفسه . فابتاع بيتاً طريفاً في مارلو أقام فيه مع ماري وابنه وابنته معها ومع جين وابنتها من بيرون . على أن الإرادة الصلبة والعزيمة القوية تستطيعان معالجة الوجود وقهر المستحيل مادامت الروح التي تحركها وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس إليها ما يضعفها ويزعزع ركنها . فأما إن ضعفت الروح واهترت قوتها المعنوية فقل على الإرادة وعلى العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث التي مرت بشلى من روحه فتضعفت وضعفت . وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتصقاً بالوحدة كمن يحشى عن الناس ضعفه . والأنوف المعتربة بقوة نفسه لا يشعر بمجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه الناس ضعيفاً مثلهم خاضعاً لتصاريف القدر خضوعهم . في هذه الساعات التي ينال المرض فيها من جسم ذلك الأنوف أو تنال الحوادث من نفسه ، يود لو أن الإنسانية كلها ولو أن أقرب الناس إليه من ذويه وأهله لم يكن حوله مهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه . وجعل شلى يذهب إلى جزر التمس المنقضة يقضى فيها نهاره وشطراً من ليله يشاهد الطيور السابحة في الماء والمحلقة في الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق في عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وجهه . ولم يكن يرجو في استمداده هذه القوة غير ما كان يطمع فيه أول صباحه من تحقيق سعادة بنى الإنسان . فقد زادت الحوادث التي كرت عليه إيماناً بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع إلى هذه الكوارث

التوالي وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب . وكانت قصيدته الكبرى الثانية - ثورة الإسلام - والتي كان يصقل فيها من قبل أن تنفجأ الحوادث تبعاً ، قد فرغ منها أو كاد . فوضع قصيدة أخرى أسماها « لاون ومتنا » ضمنها مسارح أفكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته . وضعها فى أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضياً نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والألم وكل أسباب الضعف الإنسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقضون يدهم على ناصية الوجود .

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرد إليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها . بل لقد جنت هذه الهموم على صحته ورددت إليه مرض صدره وجعلته يفكر جادا فى وسيلة البرء من علته . كتب إلى جودوين فى ٧ ديسمبر خطاباً يصف له فيه حاله جاء فيه : « وكانت صحتى أسوأ بالعمل . فإن متاعرى لتهبط أحياناً إلى حد الدهول والموت . ويبلغ بها التوتر أحياناً أخرى إلى حد غير طبيعى من التبيح . ولأقتصر على مثل مما يعذبني خاصاً ببصرى . فإن أوراق الحشيش وغصون الأشجار البعيدة لتبدو لناظرى بدقة مكروسكوبية . فإذا أقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقياً - فى كثير من الأحيان - ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهبج ذهنى مؤلم أشد الألم . ذلك أمرى إلا فى قليل . أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين الساعات التى أستطيع المقاومة فيها . على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى فى السفر إلى إيطاليا ، طمعاً فى أن تنقلنى منه . كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية . ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثراً لوجودها إلا أن هذا العرض دلنى على حقيقة المرض الذى يؤوبه صدرى . ومن مصلحتى أن يكون هذا المرض بطبعه بطيئاً . وإن الإنسان إذا عنى بتببع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه فى جو دافئ . فإذا عاد هذا

المرض على صورة واضحة أصبح واجباً على أن أسارع بالذهاب إلى إيطاليا . على أنا إنما نسافر حين يصبح السفر واجباً محتوماً ، مخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك ، وأحسبني في غنى عن أن أذكرك ، فضلاً عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التي تترتب على موتى . وإنما يحلني على هذه الصراحة القاسية ما بدا لي من أنك لم تدرك حقيقة مقصدي . فليست الصحة وإنما هي الحياة التي أبحث عنها في إيطاليا . ولست أبحث عنها من أجل ، فأنا أشعر بالقدرة على نفسى إزاء مثل هذا الضعف ، وإنما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنفعة وأمناً وكرامة ، ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله إلى التقيض إذا أنا مت .»

وما يشير إليه شلى من سوء فهم جدوين إياه هو تأويل جدوين سفر صهره إلى إيطاليا بأنه القرار من معونته المالية . على أن مارى لم ترح إنجلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلى رزقاً يقيه في شيخوخته ، كما كانت طوال إقامتهم في إيطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمناً للروايات التي تكتبها لمعونه ، وبدفع شلى ليزيد في هذه المعونة جهده . ولعل إحساسها بحاجة شلى إلى السفر كانت أشد من إحساسه هو . فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها إليه . على أنهم ظلوا ينظمون شئونهم ويبيعون دارهم في مارلو ويقتضون النامس فيها ما يستطيعون اقتضاه منهم حتى استطاعوا إعداد أهبتهم للسفر ، وسافروا في منتصف مارم سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها إلى البحيرات الإيطالية أملين أن يجد شلى في شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد إليه سكينته نفسه .

٥- سنى حياته الأخيرة بإيطاليا :

غادر شلى إنجلترا قاصداً إيطاليا في مارس سنة ١٨١٨ . غادرها مستصحباً زوجه ماري وابنيها وليم وكلا را . ومستصحباً كذلك جين كليرمون التي كانت تطمع في أن ترى ابنتها من بيرون فتروى غنة قلبها الظمى شوقاً لها . ومروا بيون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو . ومن هناك قصدوا البحيرات الإيطالية التي كانت منذ القدم مغنى الشعراء ومنهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعاً . وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات و (بكومو) منها بنوع خاص ، حتى رأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالاً غير بحيرات كلارنى الأيرلندية . على أنهم لم يجدوا في منطقة البحيرات الدار التي تعجبهم فعادوا إلى ميلانو حيث وجد شلى في كنيستها منجاً تظمن له روحه التي كانت تائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل دين . وكنيسة ميلانو جديرة بأن تظمن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلها هيبة تبعث إلى النفس ظمأنينة الإسلام للحياة ولما بعد الحياة . لكن أمر شلى لم يقف عند حد الإعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهبتها ، بل إن نفسه التي كانت جموحاً تائرة على كل شيء قد وجدت في آلام الحياة وصدوماتها المتوالية ماهد من ثورتها وما أراها ضعف الإنسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد إلى نوع من الإيمان بعظمة الوجود ممثلاً في الكنائس والبيع وبيوت الله جميعاً ، وجعل يرى فيه ملجأً يحتسى به الإنسان من ضعفه ، بل يستريح فيه إلى هذا الضعف ويظمن له .

ومن ميلانو كتب شلى إلى بيرون في شأن اللجرا منبئاً إياه بوجود أمها معهم . ورد عليه بيرون معلناً ، في صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجهاً ولن يسمح أن تعرف إليه طريقاً . ورأى شلى أن لا وسيلة للتخفيف ولو لبعض الشيء من حدة صاحبه إلا

أن يذهب إليه في البندقية . وغادر ماري وابنيها وذهب مستصحباً جين التي ألحت في السفر رجاء أن ترى ابنتها ولو غلطة من غير أن يعلم بيرون بوجودها . وتقابل الشاعران وتماديا في الأمر حديثاً انتهى بيرون معه إلى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى في دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدها مطلب عنده أوجاء فيه . وأعجب شلى بالمدينة السابعة غرق في لجة الإدرياتيك ويجزرها وكنائسها وبوائها العطر بأريج الحب المتغنى والهأ فترات من الليل بأناشيده ، الذهاب في المتاع به إلى حدود الاستغفار عنه بإقامة الكنائس الكثيرة عليها تسع ذنوب أهل المدينة جميعاً وعلّ إحداها تكون أقرب من الأخرى إلى دعاء مستجاب .

ورأى بعد الذي عرضه بيرون وبعد ذهابه وجين وابنتها إلى إست أن المكاتبه بينه وبين ماري أصبحت لا تكفي فدعاها لتقيم معها . ومن هناك عرفت ماري البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها . على أنها ازدادت من بعد هذه الرمال تعلقاً أن خلفت فيها ذكرى فاجعة هي الأولى في حياتها . فإن شهرى « إست » ما كادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه إلى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت . وبرغم ما بذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعا سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب إلى البندقية لاستشارة طبيب رجوا أن يكون أكثر من طبيب « إست » حذقاً ومهارة . لكنهم مالخوا أن وصلوا هناك حتى كانت الفتاة في آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل أن يحاول طبيبها الحيلولة بينها وبين بارثا . وذهب شلى وذهبت ماري يحملان الجسم الصغير إلى الليدو فدفعناه في رماله المختلطة صفرتها البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ماتحوى من أجدات ورموس يخلع عليها جلالها جمالا .

وجرحت أمومة ماري جرحها الأول وعرف الحزن إلى قلبها السيل . لكنها

سرعان ماتعزت وظهرت بمظهر القوى الذى لا يتزعزع حتى تمر به أعاصير القدر . وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها . فنحن فى الحياة نودى للحياة واجبها بالبر بالإنسان والعطف عليه ، وبتخليد النوع والقيام على تربيته ، وبشرف العرفان والنور والعمل لتمتلى بها القلوب جميعاً ، وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها . وما أحسن أداء هذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفر عنها عملنا . وكل شر لاسلطان لنا عليه ولا قوة لنا فى دفعه لاموضع للأسى من أجله . وثكل الوالد ولده بعض مالا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر ، فليكن موقفنا منه موقف إباء وكرامة لاموقف ضعف وحزن . ليكن موقفنا منه موقفنا من خصم يناوئنا لبيتنا مالنا ، أقرانا إذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه ؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبراً وأنفة ؟ كذلك ظهرت مارى أنوفاً لم يعرف الهم ولا عرفت الدموع إلى عينها ولا إلى قلبها سبيلاً . ولعل هذه التعاليم لم تكن وحدها مصدر شجاعته ومبعث قوتها . فهذا ولدها وللم ما يزال فى أحضانها فلها فيه عزاء . وهاهى ذى ماتزال ، كما لا يزال شلى ، فى مستقبل العمر وقوة الشباب ، فما يزال لها فى المستقبل وأبنائه وبناته وسعادته رجاء . وكلارا التى فقدت كانت ماتزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلاموضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلاً أمام الحزن الإيمقدار .

فأما شلى فقد احتمل موت طفلة فى سكينه ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر وإياهم من البندقية . وكان يشعر بأن المقام فى شمال إيطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث إلى نفسه السكينه وإلى صدره دوام ما يرجو له من عافية ويرة ، فساروا منحدرين جنوباً حتى وصلوا إلى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة مازاده قدراً لشعر رجيل ولشعر دانتى . وبعد إقامة قصيرة بها قصدوا إلى نابولى . وهناك على شاطئ خليجها الساحر البديع أتى شلى عصا تسياره آملاً أن يجد

فيها الطمأنينة التي تيسر له الانخراط في خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى في قصيدة (الملكة ماب) بمبادئ الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الإنسان بإزاء قوى الطبيعة وماوراء الطبيعة وقد قيده كلفها بقيودها فإذا هو يحاول من طريق إرادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعاً موقفاً المتحكما فيها المسير لها ، ثم إذا محاولته انتهت به إلى الفوز على القوى جميعاً بفضيلة صدق العزيمة والإيمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الطاهر الذي لا يعرف الأثرة ، وإنما يشترك فيه الإنسان وسائر مافي الكون إجلالا وتقديساً لما أبدعت الحياة في الكون من جمال وجلال . وهو يضع قصيدته هذه في صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الأولمب وعلى رأسهم جوبيتر ومن حولهم الأرض والمحيط وعداداره والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه ، و (بروموتيه) بإزاء ذلك كله يحاهده ويتصر عليه . وهو هنا يخالف الأسطورة القديمة التي تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وإن كثيرين من النقاد ليذهبون إلى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلي على كل ماسواها ويعتبرونها الدررة من شعره ، فأما آخرون فيذهبون إلى تفضيل رواية (سنسي) إذ يرتفعون بها إلى مقام روايات شكسبير . على أن (بروموتيه) قد نسجت على غير طراز (سنسي) . فبينما هذه الأخيرة ، على ما سترى ، تعبر عن حب آثم يقع في الحياة بين أب وابنته إذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود ومافيه بعض مسرحها . وهي في هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وإن اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها في بعض المواضع ولم تصل إلى رفعتها في مواضع أخرى .

ولم يطل بشلي المقام في نابولي . وكأنما كانت يد القدر التي قست به حين مقامه

على أرض وطنه فجعلته لا يطيل المكث فوقها إلا ليعود إلى الارتحال عنها محملاً هوماً
وآلاماً ماتزال لم يهدأ نائرها عليه برغم ما كان يبذل في الشعر من آيات ليست
القصائد الكبرى إلا بعضها . فلقد مرض ولده ولجأ أثناء كانوا في طريقهم
عائدين إلى روما . وخيل إلى ماري أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين
متواليتين ولن يسلبها هناة الأمومة وهي ، بعد حب الصبا ، كل ما للمرأة في الحياة
من عزاء . وعاد الطبيب الطفل فنصح إليهم أن ينتقلوا به شمالاً . لكنهم لم يكادوا
يتبأون للرحيل حتى أصابت الطفل نوبة من الدوسنتاريا ألزمتهم المكث إلى جانبه .
وبقي شلى ستين ساعة ممسكاً بيد طفله خائفاً أن يفتر الطفل منه إلى غيابات الأبد .
ذلك بأنه كان طفلاً ذكياً عطوفاً رقيقاً ، وكان جميل الصورة إلى حد سحر النسوة
الإيطاليات بزرقه العينين زرقه جذابة وبشعره الذهبي المتموج تموج الحرير الناعم
نومته . ثم إنه كان قد أصبح وحيد ماري بعد موت أخته كلارا ، فالفجعة فيه
تحجى من قلبها الفجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب
الابتسام سحابة كآبة وهم بصيب شلى منها حظ غير قليل . وكان لشلى في القدر
رجاء التصرف بحكمته إزاء طفل لم يقترف ذنباً يجزى من أجله بالموت بله المرض
وآلامه وتبارحه . لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا في هذا العالم من خير وشر ليس
في نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لامفر لنا من الإذعان له
والسير في خطواته . لذلك لم يعبأ بما كان مرجوا عند شلى ومات الطفل ودفن في
مقابر الإنجليز بروما ، هذه المقابر التي أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن
يوئذ يعلم أن ما بقي من رفاته سيرقد هناك إلى جانب جثمان طفله .

مات ولجيم فانهارت عند ماري كل تعاليم أيها وأسلمت للألم نفسها ولم تنطق
للوجود جلاداً . سكب الهم ظلمته في قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها
ورسم الحزن على ثغرها وفي نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لها إلى قفار

الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة كخاتمة أختها فاني إملاى . وعبثاً حاول شلى
تعزيزها بالترويح عنها بأن انتقل بها إلى الريف من روما وأسكنها قصرًا جميلًا يحيط
به الزهر والشجر . وما بهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كبير وبصر حزين ؟ !
إنها كلها تنقلب سواداً وتزيد على همه هما وأسى . بل تصيح ضحكات الزهر بعض
سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شامة بنا في مصابنا . وعبثاً حاول أبوها لما علم
عمق حزنها أن يردها إلى صوابها وإلى تعاليمه . فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل
أوهام وصور ماتلبث أن تطير وتلاشى إذا هي ارتطمت بقسوة الواقع . وأى واقع
أشد قسوة من الموت ، بل من النكل ، نكل الأم لوحيدها ولأمومتها ؟ وشلى وجهه
وحنانه أصبح هو الآخر مملولاً ، ثم نسى كما نسى غيره أن لم يبق من الوجود أمام
مارى إلا حزنها مجسماً في ذلك القبر الذى أوت إليه رفات ولیم . فإذا ناداها شلى
قائلاً : « أين ذهبت يا عزيزتى ماري تاركة إبائى وحيداً في هذا العالم القفر ؟ إن
صورتك الساحرة ما تزال هنا إلى جانبي . لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة
المؤدى إلى صوامع الحزن المظلم » . إذا ناداها شلى هذا النداء لم ترد على أن تمنع في
التماس صوامع الحزن تاركة إياه يبحث عن عزائه في خير دواء لكل ألم وخير بلسم
لأبلغ جرح : في العمل المتصل لأداء ما ألفت عليه الأقدار : رسالته كى يشدوها إلى
العالم أنعاماً سماوية . وأعاته سماء إيطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه . على
أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة بما رى لم يلبث أن دمس إليها من عنده بلسم
عزاء . فقد حملت وأحست في أحشائها روح الأمومة من جديد ، لكنها كانت في
خشية من معاينة القدر فظلت على عبوسها وإن زالت سحابة الهم التى كانت تظلمها
مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء . ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلى
إلى فلورنسا لتكون في رعاية طبيب صالح ، ثم إن في جو فلورنسا الجميل
ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولوقبس من رجاء ، فيها أجمل ما في إيطاليا من الآثار ،

ويضوع ريمها بأسماء دانتى ، وسافانارولا ، وجيوتو ، ودونانلو . لذلك كانت للزوجين خير موئل . فيها وجد شلى خير مايلهم شاعريته التواقة للجمال تلتسمه فى كل مظاهر الفن والطبيعة ، وفيها وجدت مارى مزيداً من رجائها . حتى إذا وضعت وألفت نفسها أمأ من جديد فى ذراعها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات ولهم ، ودعت الوليد برسى فلورنس شلى ، اعترافاً بفضل زوجها فى تقويتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت إليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها .

ولما جاء الشتاء وقرمى البرد فى المدينة « الجميلة » نصح الطبيب إلى شلى بالسفر إلى بيزا ، فذهب بأهله إليها وأقاموا بها . وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوا به ، وانضم إليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الأستاذ المجلد باكشيانى . وكان قسباً قليل الدين وأستاذا لايعلم الناس شيئاً وزير نساء ومجبا خدمة معارفه . وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه . وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته . ذلك أن للكونت فيفيانى ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه إلى الدير ، أن كانت زوجته شديدة الغيرة منها لفرط جمالها . وكان جمال كبراهما (إميليا) رائعاً روعة جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حادا وخيالها متوقفاً بمايعتد إلى كل نفس أشد الإعجاب بها والإشفاق عليها . وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقبها فيه حتى يتزوجها من شاء من غير أن يمهره الأب عنها شيئاً . فلما سمع شلى بالقصة حاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة . أليس هو يريد الكمال مجسماً فى أنثى فلما جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك . وهاهى مارى جدوين وإن كانت ماتزال من خير النسوة اللواتى

عرف إلا أنها أصبحت أمامه جسماً محسوساً ذا حدود وأبعاد وذكاء متجلياً له كل ما فيه من حكمة وشعر ، فلم يبق إذن فيها المجهول الذى يبحث هو دائماً فى الكشف عنه والوصول إليه ! فلنر إذن ماعسى أن تكون إميليا فيضاني هذه من صور الكمال وماعسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة .

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه إلى الدير . ومالبت الفتاة أن دخلت عليها المنظرة حتى سحر شلى وذهب به : قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تلحع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاماً وتزيد بهاء ما فيه من جمال فى كل انثناء وتنوء . ومشية هى للعين أنغام تموج فى النفس والخيال فتزهدما وتبهرهما . وشعر فاحم السواد ملق على أكتافها ليزيد وجهها البديع القسبات وضوحاً وبراً ، وعيون دعجاء تفيض نظراتها حبا شهيا فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاماً ، وجبين مصقول ، وأنف أقي ، وثغر عذب ، وشفاة تحدث عن فيض الرغبة . وإلى هذه الأنوثة القوية الجذابة يريق ذكاء يبدو بصيصه من حديق عيونها السوداء قويا ملتهباً . وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفوراً فى قفص ، فتوجهت إليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! إنك لتموت اكتئاباً ! فما أشد إشفاق عليك ! ألاكم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك إلى بلاد مجهولة ! أنت مثل محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك . أواه ! لو كنت أستطيع إنقاذك ! » . وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغة الإيطالية بموسيقاها سحراً وعدوبة . وزادت أنشودتها للظائر الحبيس بهر شلى فاستأذنها أن يعود إليها وأن يستصحب زوجته وأختها ، فرضيت طيبة النفس .

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت ماري إعجابها بجمال إميليا وتقدير شلى إياه على أنه الجمال الأسمى . أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابستديون) يصف فيها

الجمال والحب ويدعو فيها إملئ لثذهب وإياه إلى قصر قديم في جزيرة أبدعها خياله بين جزر الإديراتيك ليعيشا هناك وليسبحا بين جبال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهاها في عزلة لا ينغصها عليهم أحد من الإنس . وإنك لتقرأ القصيدة وتبلغ آياتها أربعة وستائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذي ذكرنا . لكنك تراه اثرياً يطير بك في عالم الجمال وينسبك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره وبديع خياله وينساب إلى روحك عذبا سلسيلا فلا تزداد إلا تعلقاً به وتقديراً إياه . وفي ختام القصيدة يقول : « اذهبي أيتها الأبيات الضعيفة فاسجدي عند قدمي سيدتك وقولي : إنني سيدة عبدك فرى أمرك فينا وفيه . ثم تنادين مع أخواتكن من سائر شعري واسجعن متغنيات : « عذب في الحب حتى ألمه . لكن جزاءه في هذا العالم قدسي لأنه إن لم ينلنا في الحياة تبعنا إلى ما وراء قبرنا » وأنت لاريب ستحيين في حين أكون أنا قد أويت إلى هناك . فأسرعي فوق قلوب العباد حتى تقابلي ماريثا وفانا ويريموس وسائر صواحبك ، ثم أهبيهن أن يحب بعضهن بعضاً وأن يبارك بعضهن بعضاً ، ودعى فيها ورامك قطع الخاطئين الطاعين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكوفي ضيفي - فإنا أنا ضيف الحب » .

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت إميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط في يده ولم يطق إتمام قصيدته . فهاهي ذى رمز الحب في طهارته قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعله النساء جميعا ممن عرف . ها هي ذى سقطت إلى مستوى القطيع تاركة إياه يعض البنان ندما على خطئه في أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وجهه وإلهامه .

وفيما كان شلى في هيامه بإميليا كان بيرون يتخطى خلية إلى خلية حتى انتهى إلى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا . وكانت من عائلة نبيلة ومتروجة رجلاً

نيلاً . . لكن صلة المرأة بجليل لم تكن في البندقية يومئذ أمراً إذاً ، حتى في نظر زوجها : على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج إلى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها . فلما تكلماً بعثت إليه تخبره بأنها مريضة فطار إليها وأقام إلى جانبها . وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا إلى بولونيا . فلما علمت جين كليرمون بأمر ابنتها بعثت إلى بيرون تستعطفه أن يبعث بها إليها . فرد عليها ردّاً غليظاً يقول لها فيه : إن التربية في بيت شلى على أساس النباتية في الحياة المادية والإلحاد في الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . فجن جنونها وبعثت إليه بمخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى في خطاب بعث به إليه يقول فيه : إن جين أم ، وإنه وإن لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها إلا أنه يرجوه أن ينظر إليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن بيرون رأى في هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى . وكان قد وصله خطاب من قنصل إنجلترا في البندقية ، يقول له فيه : إن الناس ينهون شلى بمعاشره جين ، وإن مريية كانت في خدمة شلى تدبغ أن جين حملت منه فأجهضها في نابولي حين كانت زوجته في روما . وتنفيذاً لانتقامه بعث بيرون يستدعى شلى إلى رافنا «لأمور خطيرة» . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج نائرة شلى وجعله يكتب إلى زوجته يطلب إليها أن تكذب ما تدبغ خادمهم اللتّون . وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت ماري وإن لم يقم بأى مجهود لدى القنصل في البندقية يبدد به ما علق بذهنه من أكاذيب .

وزار شلى اللجرا في الدير الذي بعث بها إليه أبوها ، في بانيو كافالو ، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها . ومع نحوها بدت وسط الأطفال قريناتا في جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرقى منبتاً . غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر .

وكانت خليفة بيرون معترمة السفر إلى سويسرا . فطلب بيرون إلى صديقه أن يكتب إليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب إلى فلورنسا أو إلى بيزا . وفاضت السعادة بشلى حين علم أنها قبلت الذهاب إلى بيزا للمقام على مقربة منهم . ولم يبد بيرون اعتراضاً أن كانت حين قد تركت تلك المدينة إلى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم في إحدى مدارسها . ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التي يقيم فيها شلى حتى أبدت جمعيتها كل الإعجاب به ، فصار قصره مقصد المتأثقين في حين بقى شلى الرسول الروحي لأهل المدينة جميعاً . وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلى . فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام في الصباح إلى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود إلى سهره ثم إلى مكتبه ليديج قصائده التي استوفقت أنظار إنجلترا كلها فكانت تلتهمها التهاماً . وكان حقاً على شلى أن يحتفل هذه الحياة زماناً كان يعتبر صاحبه فيه ضيقاً عليه في بيزا . لكنه مالم يأت أن رأى ماري تريد الانخراط في سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد إلى حياته البسيطة الأولى . ووجد في أسرة الإنجليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته . تلك أسرة وليمز وزوجه جين . وكانت جين وليمز رشيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها . وكان صوتها حلوة الغناء مما أتاح لشلى أن يذهب وهو معها في أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء . وزاده إعجاباً بيمين وليمز ما دأبت عليه ماري من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة في الحياة ما يجد غيرها .

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الأشقياء يدعى ترلوني . وقد دعوه إلى بيزا ، فاشتراط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلى ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص . فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيراً . وجاء ترلوني فانضم إلى عصبهم . ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلى برباط وثيق طلب إليه أن يبنى له ولوليمز مختاً يشتركان فيه ،

واختار لنفسه ولولمز بيتاً على الشاطئ قريباً من بيزا فأقاما فيه ومعها ماري وجين ، وجعل شلى من يخته مكباً لرياضته ولخيالاته وأحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآهة الشعر تواتيه بإلهامها من كل جانب .

والحق أن آهة الشعر لم تضمن على شلى بإلهامها يوماً من الأيام . لكنها كانت في هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التي أقامها في إيطاليا أشد بإلهامها أيضاً ، حتى ليدهش الإنسان حين يرجع إلى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكى كله ، ثم ليزداد دهشة إذا رجع إلى رسائله وإلى نثره فقرأها لا نقل عن إلهامه الشعري غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملكاً لعالم الجمال وكل ما حوى . ولو أنك أردت أن تحصى ما كتب من شعر في هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الأبيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب من هذا عند قصائده الكبرى كقصيدة (بروموتيه) و (سنسى) و (ساحرة الأطلس) و (إبيشديون) و (قناع الفوضى) و (أدونائيس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل إن له لمقطوعات يقر مترجموه جميعاً بأنها أبقى الشعر الإنساني كله على الدهر . وهذه المقطوعات التي يتحدث بها مرة إلى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسة ، وأخرى إلى النيل وعشرات ومئات غيرها ، هي لا ريب خير ما تغنى به شلى معبراً به عن صلته بمملكة الجمال في الوجود . ولقد تغنى في هذه المقطوعات كما تغنى في مواضع كثيرة من قصائده الكبرى ، فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسبها له ، فإذا بك وقد قرأت شلى محسناً بها لأمساً إياها معترفاً بأنك أنت الذي كنت عاجزاً عن رؤيتها بحسك واكتناهاها بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة في الوجود . بل إن لنثره من هذه القوة بالشعره ، وإن كانت موسيقى شعر شلى مما يزيد في قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلى جوانب شتى لمح القارئ بعضها فيما قدمنا له من ترجمته . فثم جانب

من حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها . و(روح الوحدة) و(أبيشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب خير تعبير . تترنم القصيدة الأولى بياض الشاعر وآلامه وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتصقاً في العدم راحة من آلامه ، واجداً في خيالات الحب لهذه الأعرابية التي مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن إلى الموت سكونها الأخير . وقصيدته الثانية هي قصيدة الجمال والحب مجسمين في إميليا فيفياني . أما الكثير من مقطوعاته فيتصوغ بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف في شعر شلى . فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يمدون فيه تمثال الكمال الإنساني مجسماً . وكأنما كان جسمه يصبو إلى هذه الأجسام التي تتمثل فيها الروح الإنسانية بكل نوازعها معنى الجمال الإنساني . لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال في خيال قسرته عليه فضيلته وألزمته إياه آراؤه ومبادئه . لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا إليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله ولخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال . وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يمدون في صبوة الجسم إلى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسعى إليه الحب بل كل ما يحرك في النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى الذى تراه صريحاً جلياً في شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس إلى نفوس كل من أحبته من النسوة ، وبما يشبه اليأس إلى نفس ماري أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التي ترى في فضيلة شلى معنى من معاني الرواقية والزهد في الحياة والرغبة عنها تشتر بنقص في الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها .

على أن جمال المرأة وإن زان كل جمال في الوجود وتوجه فليس ما في الوجود سواه من جمال أقل إلهاماً لنفس الشاعر وتحداً إلى قلبه . بل إن كثيراً من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالاً وزينة بمقدار ما تزينه هي وتجعله . ولئن كنت ترى

هذين اللونين من الجمال مقترنين أكثر الأحابيين في نفس أكثر الشعراء ، إلا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية إيمانه في الحياة . وهو في هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حساً . وهو لهذا كان يريد أن يفصل المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال في مثله الأعلى ، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة مالم يصحبه روح جميل هو الآخر . وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائده . المدينة الفاضلة بما فيها من إخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة . المدينة الفاضلة المترفة عن دنيا الشهوات ، السامية إلى مكانة هي وحدها الجديرة بالإنسانية المهدية . و (الملكة ماب) و (بروموتيه) و (سنسى) نفسها اندفاعات صادقة في الدعوة إلى هذه الغاية العليا و حرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدي إليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا في الروح الإنسانية تحكماً ينتهي بها إلى فسادها وذلها . ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحاً في (سنسى) منها في أية قصيدة أو رواية أخرى ، فقصة هذه الرواية التي وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب في صف روايات شكسبير ، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بعفاف ابنته بياتريس . وشعرت الفتاة بالكراهية التي يريد بها أبوها عليها فدبرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعاً . وإنما لجأوا إلى الانتحار بجمياته بعد أن لجأوا إلى البابا وإلى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفاً . وكشف الأب المؤامرة فشكاهم إلى قداسة البابا فأمر بإعدامهم وفقاً لإرادة الكونت الذي اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بشمن زاد على مائة ألف من الجنهات : ولو أن العدل أخذ مجراه في هذه المؤامرة لكان (سنسى) هو الخليل بأن يميز أشد الجزاء . لكن في إعدامه إعداماً للأموال الطائلة التي كان

يفدقها على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وإن كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق
الجماعة على حياة الرذيلة مادامت تفيد منها . ثم لثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار
هذه الرواية الخالدة ثورة نذك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجبال المرأة ليكون
مثالاً لها هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه .
وطبيعى أن كان إقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات
يلتمسها فى واقع الحياة . ولئن صحح إن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فليبيرون أن
يزهى على صاحبه وأن ينظر إليه مشفقاً عليه . لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع
يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله إلى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين
خلاها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين
لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثراً من آثار طيبة قلبه ووجه الناس
وبره بأصدقائه . وقد عرف فى أثناء مقامه بكازامانى بالقرب من بيزا أن صديقه لى
هنت فى عوز فدعاه إلى إيطاليا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى
إيطاليا يكون لها امتياز السبق إلى نشر قصائد بيرون . وفيما كان هنت فى طريقه إلى
بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيداً بيخته سعيداً بزورق صغير صنع له كى
ينقله وصاحبه ولينز من اليخت إلى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت
على الشاطئ . وكان كثيراً ما يستلقى فى أثناء رحلاته على الماء تاركاً السفين يلعب به
الموج ذاهباً هو فى نيهاء تأملاته وأحلامه . فإذا عاد إلى داره التمس فى مجاوراته مكاناً
منعزلاً بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه
للحياة وللحرية تارة ولزوجه مارى طوراً ولجين ولينز التى أصبحت ربة شعره فى
هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحيان . وكثيراً ما كان ينفضى النهار وهو فى عمله عند

جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتباً ، ناسياً في أثناء ذلك طعامه وشرابه ، مكباً على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجته وكان صاحبه ترلوني يذهبان إليه يتشلاتانه من عالمه الجميل السعيد ويردانته إلى الحياة التي يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد .

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله في ليفورنو ، ومن هناك ذهب به إلى بيرون في بيزا ليتموا الاتفاق في شأن الجريدة التي تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها . ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقرز إلى نفس بيرون ، فقد ظل به شلى حتى انتهى بإلزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر للرجل أخلص للأدب وللشعر حياته . فلما آن له أن يرتحل عائداً إلى بيته فوق سفينة عصفت ربيع جعلت السفرة محوفة ، حتى لقد تردد ترلوني الذي قضى فوق لبح البحر حياته في أن ينصح لها بالسفر . لكن شلى كان إذا اعترم فعل . فاصطحب صديقه ولينز وغلاماً معها وأقفلوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتها زوجها في ذلك اليوم الذي انقضى من غير أن تقفا لها على خير . وانقضى الثلاثاء والأربعاء بعده فجن جنونها وطاش صوابها وذهبتا إلى ليفورنو باحثتين عنها . وعلم ترلوني بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا في زورقهما . وأخذ نفسه بالبحث على شاطئ البحر ما بين ليفورنو وكازاماني حتى إذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الغائصون بجثة عبثت الأسماك بوجهها وإن لم تحف معالها . وألقى ترلوني في جيب الجاكتة كتاب إسكيلوس فلم تبق لديه ريبة في أنها جثة شلى . ثم لم يطل بالفائصين البحث حتى عثروا بجثة ولينز . ودفنها ترلوني في الرمل ثم ذهب مكتئباً حزيناً إلى كازاماني . وحاول أن يدخل فخاته فواه فجعل يدور حول المترل حتى لمحتة خادم ، أخبرت سيدتها بالأمر . فما لبثتا أن رأته حتى تبدد كل وهم من رجاء بقي عندهما وحتى انهبطتا إلى الأرض صعقتين قضى عليهما الترمل والهجم .

ولما أفافتا ذكرت ماري ما كان يرجو زوجها أن يدفن في مقابر الإنجليز بروما .
لكن نقل الجثة من بيزا إلى روما غير جائز بحكم قانون البلاد إلا أن تحرق الجثة
وتنقل بقية التراب منها . ففي ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ،
وقف لورد بيرون والشاعر لي هنت والبحار ترلوني فوق رمال الشاطئ الإيطالي على
مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف إلى جانبهم جماعة من
الضباط والعساكر الإيطاليين ، وكلهم محقق يبصره إلى نار تضطرم قد بوركت
بالنيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الإنساني ، وكلهم واجم
مخلوع القلب ذاهب في تيهاء الهلع والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث
ساعات تباعاً يهز نفوسهم هزاً فلا يزدادون إزاءه إلا وجوماً وذهولاً ، وتندى عين
بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبه . ويجدق ترلوني بالعظام تحترق
وباللحم تذيبه النار ، ثم تبدأ النار بعد ذلك تجبور وبدأ رويداً تاركة وراءها حفنة
من تراب هي كل ما بقي من رفات قيثاره الشعر الإنجليزي شلى . ويحمل ترلوني
الحفنة إلى الأرملة البائسة ماري شلى لتتولى ويتولى هو ولي هنت معها حملها إلى مقابر
البروتستانت في روما كي تستقر هناك في أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد
مع ذلك باستقرارها إلى جانب رفات عزيزة محبوبة هي رفات ابنه ولیم . ويقع هذا
المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية إلى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ إلى يوم
وفاته في الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره وإن كان قد خلف من شعره
على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الإنجليزي عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان
على المرء حسه ولبه وتبعثان إلى كل ما تنشدهانه وترغمان به الحياة والمخلد ، سواء أكان
ما تنشدهانه وترغمان به إنساناً أو طيراً أو حيواناً أو جراداً أو مجرد خيال لا وجود في
الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى في كل ملامس نفس شلى لتبقى قائمة به
قروناً ودهوراً بعد موت باعثها .